أشكال الخطاب النثري الفني الأموي
في المغرب الأندلسي

أشكال الخطاب النثري الفني
في العصر الأموي
في المغرب الأندلسي

جميع الحقوق محفوظة
لصاحب الموسوعة

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

ترجمة المؤلف

حسين علي الهنداوي

أ- أديب وشاعر وقاص ومسرحي وناقد وصحفي

ب- له العديد من الدراسات الأدبية والفكرية

ج-نشر في العديد من الصحف العربية

د- مدرس في جامعة دمشق . كلية التربية - فرع درعا

هـ- ولد الأديب في سوريا - درعا عام ١٩٥٥ م

و- تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في مدينة درعا

ح- انتقل إلى جامعة دمشق كلية الآداب - قسم اللغة العربية و تخرج فيها عام ١٩٨٣

ك- حائز على إجازة في اللغة العربية

ص-حائز على دبلوم تأهيل تربوي جامعة دمشق

ع- عمل محاضراً لمادة اللغة العربية في معهد إعداد المدرسين - قسم اللغة العربية في مدينة درعا

ف- انتقل إلى التدريس في المملكة العربية السعودية عام (١٩٩٤ / ٢٠٠٠) في مدينتي عنيزة وتبوك .

- عضو اتحاد الصحفيين العرب
- عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب
- عضو تجمع القصة السورية
- عضو النادي الأدبي بتبوك

الصحف الورقية التي نشر فيها أعماله :

١- سوريا (تشرين – الثورة – البعث – الأسبوع الأدبي) ٢- الإمارات العربية (الخليج)

٣- السعودية (الرياض – المدينة – البلاد – عكاظ)

٤- الكويت (الرأي العام – الهدف – الوطن)

المجلات الورقية التي نشر فيها أعماله :

١- مجلة المنتدى الإماراتية

٢- مجلة الفيصل السعودية

٣- المجلة العربية السعودية

٤- مجلة المنهل السعودية

٥- مجلة الفرسان السعودية

٦- مجلة أفنان السعودية

٧- مجلة السفير المصرية

٨- مجلة إلى الأمام الفلسطينية

مؤلفاته :

أ- الشعر :

١- هنا كان صوتي و عيناك يلتقيان/١٩٩٠

٢- هل كان علينا أن تشرق شمس ثبير/١٩٩٤

٣- أغنيات على أطلال الزمن المقهور /١٩٩٤

٤- سأغسل روحي بنفط الخليج /١٩٩٦

٥- المنشّى يسلم مفاتيح ايلياء/١٩٩٦

٦- هذه الشام لا تقولي كفانا /

٧-هل تعلمون من حبيبتي؟؟؟!!!

ب- القصة القصيرة :

١-شجرة التوت /١٩٩٥

٢-زنكه

ج – المسرح :

١- محاكمة طيار /١٩٩٦

٢- درس في اللغة العربية /١٩٩٧

٣- عودة المتنبي / مخطوط

٤- أمام المؤسسة الاستهلاكية / مخطوط

د – النقد الأدبي :

١- محاور الدراسة الأدبية ١٩٩٣

٢- النقد والأدب /١٩٩٤

٣- مقدمتان لنظريتي النقد والشعر /

٤- أسلمة النقد الأدب

هـ – الدراسات الفكرية والدينية :

١- الإسلام منهج وخلاص . الجزء الأول

٢- الإسلام منهج وخلاص . الجزء الثاني

٣- الإسلام منهج وخلاص . الجزء الثالث

٤- فتاوى واجتهادات / جمع و تبويب

٥ - هل أنجز الله وعده !!!!!!

و-اللغة العربية

١-النحو العملي المستوى الأول

٢- النحو العملي المستوى الثاني

٣- النحو العملي المستوى الثالث

٤- النحو العملي المستوى الرابع

الصحف الالكترونية التي نشر بها :

١-قناديل الفكر والأدب

٢- أنهار الأدب

٣- شروق

٤- دنيا الوطن

٥- ملتقى الواحة الثقافي

٦- تجمع القصة السورية

٧- روض القصيد

٨-منابع الدهشة

٩- أقلام

١٠-نور الأدب

أشكال الخطاب النثري الفني الأموي في المغرب الأندلسي

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

. حدثنا عبد الله بن يوسف :

أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((إنّ َ منَ البيانِ لسحرا، أو إنَّ بعضَ البيان سحر)) .

صحيح البخاري

/٥٧٦٧/

كتاب

أشكال الخطاب النثري

الفني الأموي

في المغرب الأندلسي

توهج

الباب الأول
النثر الفني والأدبي
في الأندلس

أ- النثر الأندلسي رؤى وأبعاد:

رأينا الأندلس تندفع نحو تقليد المشرق في عمله وأدبه، وكان هذا الاندفاع طابع الأقاليم العربية عامة، فهي جميعًا تتجه نحو الأم، نحو بغداد، تتغذى منها، وتستمد صفاتها وخصائصها، ومهما غربت وأبعدت عن بغداد، فالخصائص الكبرى للأدب العربي في كل إقليم من أقاليمه واحدة، وكأنما اللغة العربية لا تعرف الاعتداد بالمكان، ولا تعتد به بل قل هي تعرفه، وتعتد به، ولكنها لا تقيم وزنًا كبيرًا لهذه المعرفة، ولا لهذا الاعتداد، بل إنها لتقسوا على الأقاليم التي تدخلها، فإذا أبناؤها لا يتصلون به إلا اتصالا بعيدًا، أما اتصالهم القريب، فإنما هو بالنماذج الأدبية الممتازة، التي اصطنعتها العربية لنفسها في بغداد والمشرق ، ومن أجل ذلك كنا لا نجد فروقًا جوهرية بين نماذجها في العراق، وفي بلد كالشام ومصر،

وحتى الأندلس لا نحس فيها أننا بدلنا بجو المشرق العام جوًّا يختلف عنه تمام الاختلاف، ونحن لا ننكر أثر الإقليمية من حيث هو، فدائمًا توجد في كل إقليم صفات تميز أدبه بعض التميز من أدب الأقاليم الأخرى، ولكن ينبغي أن لا ننزلق من ذلك إلى القطع بأن الأقاليم العربية أوجدت لأنفسها آدابًا متخالفة بتخالفها، فإن ذلك إنما ينزلق إليه من لم يقرأ شيئًا في آداب هذه الأقاليم، فتراه يعتمد في حكمه على الحدس، والتخمين كأننا بإزاء مسألة ميتافيزيقية، أما الذين يكفون عقولهم عن مثل هذه الفروض لاجئين إلى الحقائق الحسية الصحيحة، يستمدون منها أحكامهم، وآراءهم فإنهم يعرفون أن جملة النماذج، التي كونها الأدب العربي في أي إقليم من أقاليمه، لا تختلف اختلافات واسعة عن النماذج الأساسية لهذا الأدب، التي كونها في المشرق . على أنه ينبغي أن نلاحظ ظاهرتين مهمتين تتصلان بالنثر الأندلسي، أما الظاهرة الأولى، فهي أن هذا النثر لا يظهر فيه كاتب كبير قبل القرن الرابع للهجرة، وذلك لسبب بسيط، وهو أن الشخصية الأدبية للأندلس لم تتكامل إلا في هذا القرن، وكان الناس قبل ذلك يكتبون نثرًا، ولكن أحدًا منهم لم يستطع أن يرتفع بنثره إلى درجة تجعله يقف في صفوف كتاب العصر العباسي الممتازين . والحق أن الأندلس تبدأ نهضتها الأدبية منذ القرن الرابع، وعهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم، ذلك العهد الذي ألف فيه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وأملي فيه كتاب الأمالي، أملاه أبو علي القالي في قرطبة، ومنذ ذلك العهد المزدهر أخذت الأندلس تشعر بشخصيتها، وتحاول أن تصور هذه الشخصية في آثارها، ونماذجها الأدبية، وهذه هي الظاهرة الأولى، أما الظاهرة الثانية فهي أن الأندلسيين لم يستحدثوا لأنفسهم مذهبًا جديدًا في تاريخ النثر العربي، يمكن أن نضيفه إلى المذاهب الثلاثة السابقة، التي كونها هذا النثر في المشرق، فقد وقفوا عند المحاكاة، وهي محاكاة اضطرتهم إلى ضروب من

الخلط، إذ ترى الكاتب الواحد يجمع في نماذجه بين المذاهب الثلاثة، التي رأيناها في المشرق ، فتارة يصنع لنفسه نموذجًا من ذوق أصحاب الصنعة، وتارة يعدل عن ذلك إلى ذوق أصحاب التصنيع، وتارة ثالثة يعدل إلى ذو أصحاب التصنع، وقد فتنت كثرتهم بالسجع، ولكنها لم تفتن بالبديع، الذي كان يصحبه عند أصحاب التصنيع، بل فتنت -إلى حد ما- بالغريب الذي رأيناه عند أصحاب التصنع، كما فتنوا بالأمثال، وربما كان لكتاب الأمالي للقالي أثر مهم في ذلك، فقد بناه صاحبه على هذين الجانبين، ونحن نقف عند أهم كتاب ظهر في العصر الأموي، لنرى ما وصل إليه النثر الأندلسي في هذا العصر من رقي وازدهار، وهو ابن شهيد الكاتب المشهور. ابن شُهَيْد: وهو، أحمد بن عبد الملك ... بن شهيد الأشجعي القوطي، ولد بقرطبة عام ٣٨٢هـ، وتوفي عام ٤٢٦هـ١، وهو من بيت أدب ومجد، كان جده وزير عبد الرحمن الناصر٢ وأديبًا من أكبر الأدباء في عصره، وورث عنه حفيده أدبه، كما ورث عنه صلته الحسنة بالأمويين، وإن لم يستوزروه لثقل كان في سمعه. ويظهر أنه ورث عن آبائه مالًا كثيرًا بعثره في اللهو، والخلاعة حتى ليقول أبو حيان: "إن البطالة غلبت عليه، فلم يحفل في آثارهم بضياع دين، ولا مروءة"٣. وهذا الشخص المترف الذي ساق حياته في اللهو، والخلاعة كان مثقفًا ثقافة واسعة بمعارف عصره، فقد ذكر في إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب، وخبر وفقه وطب وصنعة وحكمة٤، ويقول ياقوت: "كان له من علم الطب نصيب وافر"٥. على أن الجانب الذي تميز به، إنما هو جانب الأدب، فقد كان شاعرًا كبيرًا كما كان كاتبًا كبيرًا أيضًا، ويدل ما روي عنه من آثار أن نثره كان أكبر من شعره، وقد شهد له النقاد بمقدرته فيه وتفوقه، كتب عنه الثعالبي فقال: "إن نثره في غاية الملاحة" ، وقال أبو حيان: "كان أبو عامر بن شهيد يبلغ المعنى، ولا يطيل سفر الكلام، وإذا تاملته ولسنه، وكيف يجر في البلاغة رسنه،

قلت: عبد الحميد في أوانه، والجاحظ في زمانه ... وكان في تنميق الهزل، والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك.. وله رسائل كثيرة في أنواع التعريض والأهزال، قصار وطوال، برز فيها شأوه، وبقاها في الناس خالد بعده"٢. وقدم له صاحب الذخيرة بقوله: "كان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها، وينبوع آياتها، ومادة حياتها، وحقيقة ذاتها، وابن ساستها وأساتها، ومعنى أسماته ومسمياتها، نادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جد فزئير الأسد الضرغام، نظم كما اتسق الدر على النحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود، تشق القلوب قبل الجلود، وجواب يجري مجرى النفس، ويسبق رجع الطرف المختلس" ، ومن قول صاحب المطمح فيه: "عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قصب السبق فيها، لا يشبه أحد من أهل زمانه، ولا ينسق ما نسق من در البيان وجمانه، توغل في شعاب البلاغة وطرقها، وأخذ على متعاطيها ما بين مغربها ومشرقها، لا يقاومه عمرو بن بحر، ولا تراه يغترف إلا من بحر". ونرى من هذه النصوص المختلفة أن النقاد، كانوا يكبرون من شأن ابن شهيد ومنزلته الأدبية، وقد قرنوه إلى الجاحظ لهزل كان فيه، وميل إلى الفكاهة، وأكبر الظن أنه يتأثر في هذا الجانب بديع الزمان، فقد ذكره في رسائله ، وكتب رسالة في الحلواء ذهب فيها مذهبه في المقامة المضيرية، وحكى في التوابع والزوابع ما وصف به بديع الزمان الماء، ثم أتى بأوصاف أخرى للماء يريد بها أن يثبت براعته ، وأهم أثر تركه ابن شهيد هو رسالة التوابع والزوابع، والتابع الجن والزوبعة الشيطان، وسماها بهذا الاسم؛ لأنه بناها على شيطان تراءى له في وقت أرتج عليه فيه، وهو ينظم شعرا فأجازه، ولما تعارفا طلب إليه ابن شهيد أن يلقى به شياطين الشعراء والكتاب الذين غبروا، فأجاب طلبته، وحمله على جناحه إلى وادي الجن، حيث التقى بكثير من شياطين

الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين، كما التقى بطائفة من شياطين كتاب المشرق، وتدور القصة في الرسالة على أنه يلقى التابع للشاعر المشهور، فينشده شعرًا لصاحبه، ثم ينشده ابن شهيد بعض شعره، فيعجب به، ويجيزه آية على قدرته البلاغية، وكذلك يلقى توابع الكتاب أمثال عبد الحميد، والجاحظ وبديع الزمان، فيعرض عليهم رسالته في وصف البرد والنار والحطب، كما يعرض عليهم رسالته في الحلواء. وايضًا فإنه يعرض عليهم صفته لثعلب ولبرغوث، ويستحسنون ما يعرض ويجيزونه. ووقف تابع الجاحظ عند سجعه، وقال له: إن كلامك نظم لا نثر فزعم أن تلك صفة أهل بلده، وأنهم يعجبون بالسجع وطابعه، وهكذا تنفض جموع الجن، وهي تشهد بأنه شاعر بديع، وكاتب بليغ . والرسالة تفيض بروح الفكاهة، كأن نراه يعرض لبركة ماء بإحدى جوانب وادي الجن، ومن حواليها طائفة من حمر الجن، وبغالها وتتقدم له بغلة شهباء عليها جلها، وبرقعها فتنشده بعض الشعر، وأخيرًا تقول له: "أما تعرفني أبا عامر؟ قلت: لو كانت ثم علامة، فأماطت لثامها فإذا هي بغلة أبي عيسى، والخال على خدها، فتباكينا طويلًا، وأخذنا في ذكر أيامنا". وما من شك في أن هذا الجانب في التوابع والزوابع يكسبها خفة ورشاقة، ومن يرجع إليه يجد ابن شهيد لا يستخدم فيها دائمًا أسلوب السجع، بل تارة يسجع وتارة لا يسجع، وهذا هو معنى قولنا: إن الكاتب الكبير في الأندلس، لم يكن يخضع في صنع نماذجه لمذهب معين من مذاهب المشرق، بل هو –على نحو ما نرى الآن عند ابن شهيد– كان يتقلب بين المذاهب والمناهج المختلفة، ومع ذلك فلا تظن أن ابن شهيد حين يستخدم السجع كان يستخدم البديع، الذي هو الشق الثاني لمذهب التصنيع ، فإنه لم يكن تتصور هذا المذهب بكافة تفاصيله، كما تركه أصحابه، وليس معنى ذلك أنه لم يقرأ لهم ما يفهم به هذا المذهب، بل لقد قرأ لهم كثيرًا، وخاصة الصابي، وبديع الزمان ! وأيضًا ينبغي أن لا

تظن أن ابن شهيد لم يخرج في جوانب من رسائله إلى مذهب التصنع، بل خرج إلى هذا المذهب في كثير من جوانبها؛ إذ نراه يعنى باستخدام الغريب، واعترف بذلك في إحدى رسائله ، وكان إلى ذلك يكثر من الأمثال ، كما كان يكثر من المبالغات والتهويلات ، والاقتباس من القرآن الكريم ، إلا أنه لم يعن بتعقيدات زخارف البديع جملة، بل إن لم يعن بهذه الزخارف نفسها، كما تركها أصحاب مذهب التصنيع، ومع ذلك فقد كان ذوقه أقرب ما يكون إلى ذوقهم، وتطرق من هذا الذوق إلى العناية، بالفكاهة في آثاره على نحو ما نجد عند بديع الزمان في مقاماته، وكما أطرف في رسالة التوابع والزوابع أطرف أيضًا في رسالة أخرى، تسمى حانوت عطار، ويظهر أنه كان يميل إلى الإغراب في الموضوع، ولعل ذلك ما جعله يقف عند وصف ثعلب برغوث، وبعوضة، ومهما يكن فقد كان ابن شهيد أكبر أديب في عصره، ولكنه لم يستطع المخالفة على مذاهب المشرق ومناهجه، بل ذهب يقلد هذه المذاهب، والمناهج في غير نظام، ولا نسق معين . نسج الكتاب الأندلسيون نثرهم على منوال النثر المشرقي ويسير على نهجه و كبار النثر في الأندلس هم كبار شعرائها أمثال ابن زيدون وابن شهيد وابن حزم وأبي حفص ابن برد وابن دراج القسطلي ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم وهذا على عكس أساتذة النثر في المشرق حيث كان شعرهم أقل جودة من نثرهم ونذكر منهم على سبيل المثال أبا الفضل بن العميد والصاحب ابن عباد وأبا بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني ولذلك فقد نشأ في المشرق ما يسمى بشعر الكتاب أي شعر هذه الطبقة الممتازة من الكتَّاب الذين لا يرقى شعرهم إلى مستوى نثرهم.

واتسعت أبواب التأليف والتصنيف في العهد الأندلسي وأخذ الأندلسيون يؤطرون للعلوم المعرفية والطبيعية والفلسفية والأدبية.

ب- ملوك الطوائف، ونهضة النثر الأندلسي:

إذا تركنا عصر الأمراء الأمويين، وانتقلنا إلى عصر ملوك الطوائف، وجدنا الأندلس تنهض نهضة واسعة في أدبها من شعر ونثر، وكأنما انقسامها إلى وحدات صغيرة أهلا لنشاط أدبي واسع، إذ أصبح لكل وحدة صغيرة، أو بعبارة أخرى، لكل مدينة، حكم مستقل، وسعى كل حاكم –بسبب ما بينه وبين الحكام الآخرين من تنافس– إلى تشجيع الحركة العلمية والأدبية في وطنه، ومقر حكمه وملكه، وبذلك أضفى انقسام الأندلس إلى دويلات على العلم والأدب تقدمًا ورقيًا عظميًا، وإن الأندلس في ذلك لتشبه إيران في القرن الرابع الهجري، حين توزعتها دول وإمارات مختلفة، فقد لاحظنا في غير هذا الموضع أن هذا التوزع، وما صحبه من قيام مدن، ومراكز كثيرة أهل لنهضة أدبية رائعة، وكذلك الشأن في الأندلس في أثناء القرن الخامس للهجرة، فإن انقسامها إلى أندلسيات متعددة، جعل مراكز النشاط الأدبي فيها تتعدد أيضًا، وكان كل حاكم أو أمير يعنى بأن يكون في بلاطه أهم كاتب في إقليمه، ومن ثم أصبحت كل مدينة تشتهر بكاتب مهم، إن لم يكن بطائفة من الكتاب، وتعقب صاحب الذخيرة هذه الظاهرة، فعرض لكتاب كل مدينة عرضًا مفصلًا، ومن يرجع إليه في كتابه المذكور، يلاحظ أن الكتاب كلهم غمرهم ذوق السجع، فهم جميعًا يسجعون، وكان الكتاب في العصر الأموي يتخففون من السجع أحيانًا، كما رأينا عند ابن شهيد، أما في هذا العصر فإنه يلتزمونه التزامًا، بل قد يجد الإنسان في عصر الأمويين كاتبًا لا يسجع مطلقًا، وإنما يزواج مثل ابن برد الأكبر، أما في هذا العصر، فإن الكتاب جميعًا يسجعون، ومن أبرعهم في ذلك ابن برد الأصغر حفيد ابن برد الأكبر، وقد روى له صاحب الذخيرة مجموعة كبيرة، من رسائله، كما روى له مناظره بين السلف والقلم، ومن يقرأ المناظرة والرسائل لا يحس جديدًا، فقد جمدت الأندلس عند صياغة المشارقة، ولم تستطع أن تضيف إليها من جديد، وهل يستطيع الغنسان أن يجد في الذخيرة لهذا العهد اتجاهًا جديدًا، أو لونًا جديدًا؟

إنه ليس هناك إلا التقليد والمحاكاة وأن يحتذى الكاتب على نموذج مشرقي، فإذا هو يصنع رسائل كرسائل المشارقة، أو يصنع مقامة كمقاماتهم على نحو مقامة أبي حفص عمر بن الشهيد، التي رواها صاحب الذخيرة، ونحن نلاحظ عند هؤلاء الكتاب عامة أنهم لم يعنوا بالبديع، لكنهم استمروا -كما رأينا عند ابن شهيد- يعنون بالغريب، وبالأمثال والاقتباس من القرآن، كما عنوا كثيرًا بحل الشعر وتضمينه، وليس معنى ذلك أنهم عقدوا نثرهم على نحو ما رأينا عند أبي العلاء وأصحابه، فإن حياتهم التي كانت تقوم على الفتن من جهة، وعلى الحروب من المسيحيين من جهة أخرى، لم تتح لهم الفرصة للتأني والتمهل، فلم يطبع أدبهم بطابع التعقيد، وإن كان ذلك يظهر فيه من حين إلى حين، ونحن نقف عند أهم كاتب ظهر في هذا العهد، وهو ابن زيدون، لنطلع على الصورة الفنية للكتابة حينئذ.

ج-جمود النثر الأندلسي:

يذهب عصر ملوك الطوائف، وندخل منذ عام ٤٨٤ للهجرة في عصر جديد هو عصر سلطان المغاربة، إذ فزع الأندلسيون في حروبهم مع المسيحيين إلى يوسف بن تاشفين، صاحب دولة المرابطين لينصرهم عليهم، فيذهب إليهم يرد عنهم كيد أعدائهم، ولكنه لا يتركهم، بل يدخلهم في حوزته، واستمرت الأندلس تابعة لدولته، حتى استولت عليها دولة الموحدين، وقد اشتهرت الدولة الأولى دولة المرابطين بالتعصب في مسائل الدين، وأصبح للفقهاء في عصرها شأن كبير، إذ كان لهم أثر واسع في دخول البلاد في هذا الحكم الجديد، وكان المرابطون لذلك يعتدون بهم، فهم عدتهم وعتادهم، ومن أجل ذلك سلموا لهم شئون الدولة، فاضطهدوا المتفلسفة، ورموهم بالزندقة وتعقبوهم في كل مكان. أما دولة الموحدين، فكان حكامها أوسع عقولًا وتفكيرًا، وقد اشتهر من بينهم أبو يعقوب يوسف بن عبد

المؤمن "٥٥٨-٥٨٠هـ" بمحبة الفلسفة وأصحابها، وممن ظهر في عصر هذه الدولة ابن باجة، وابن رشد وابن طفيل، ونستمر حتى نلتقي في القرن السابع ببني هود، وكذلك ببني الأحمر أصحاب غرناطة . واستطاعت الأندلس أن تتقدم في الحركة العقلية في أثناء تلك العصور، ولكنها لم تستطع أن تتقدم في الحركة الأدبية، إذ استعلى الفقهاء أول الأمر في الحكومة، وأصبح الحكام يتخذون منهم كتابهم، فطبعوا النثر بطابعهم العلمي الجامد، وكانوا يسجعون في كتابتهم، ويحلون سجعهم بالتصنع لبعض المصطلحات العلمية، التي عرفوها في دراستهم، وهم من هذه الوجهة أقرب إلى ذوق أصحاب التصنع في المشرق من كتاب عصر ملوك الطوائف، ولعل مما يتصل بذلك أنهم تصنعوا في كتابتهم للبديع، وما يتصل به من طباق وجناس، وأخذوا يعممون السجع في الكتابة التاريخية، وخاصة تلك التي تتصل بالترجمة للأدباء، على نحو ما نجد في "الذخيرة" لابن بسام و"قلائد العقيان" و"مطمح الأنفس" لابن خاقان، وقد جنح لسان الدين بن الخطيب، إلى السجع في بعض جوانب من كتبه، وكذلك صنع المقري في "نفح الطيب" و"أزهار الرياض"، وكل هذه الأعمال يحس الإنسان فيها بضروب مختلفة من التلفيق، والتصنع واللف والدوران حول المعاني، والصور التي يجترها الأدباء اجترارًا، وقد سرت حينئذ ظاهرة مهمة، وهي التعبير بالأساليب المحفوظة، التي لا تفصح عن فكرة محدودة، وارجع إلى الذخيرة أو إلى مطمح الأنفس إلى قلائد العقيان، فسترى هناك مقدمات يقدم بها الأدباء لا تعبر عن معان واضحة، وإنما تعبر عن صور جامدة متبلورة، وهذا هو معنى ما نقوله من جمود النثر الأندلسي، وابحث ما شئت في هذه العصور، فلن تجد جديدًا ولا ما يشبه الجديد، إنما تجد أدبًا مكررًا معادًا، قد كررت أساليبه وأعيدت عباراته مئات المرات بل آلاف المرات، ولا جديد فيه إلا ما يتصنع له الكاتب من مصطلح علمي، أو لون بديعي، أو إشارة إلى مثل، أو

استخدام لغريب، أو نحو ذلك مما كان يعد آية في هذه العصور على بلاغة الكاتب، ومهارتها الفنية، ونحن نقف قليلًا عند أهم كاتب ظهر في الأندلس لهذه العهود، ونقصد لسان الدين بن الخطيب لتنكشف لنا صورة الكتابة الفنية حينئذ انكشافًا تامًا.

د-ما خلفه كتاب الأندلس من آثار نثرية :

ترك كتاب الأندلس آثاراً ضخمةً من المؤلفات ،

١-فكتب ابن سيده كتاب (المخصص) في معاني الألفاظ،

٢-وكتب الزهراوي في الطب والصيدلة (التنضيف)

٣-وصنف ابن حزم (طوق الحمامة) في فلسفة الحب،

٤-وكتب لسان الدين بن الخطيب (الإحاطة في تاريخ غرناطة)

٥-وكتب الإدريسي في الجغرافيا (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)

٦-وابن بسام الأندلسي (الذخيرة في محاسن الجزيرة)

٧-وكتب ابن عبد ربه في الأدب (العقد الفريد).

٨-وكتب ابن عصفور في فن الصرف

ويمكن القول بأنّ النثر الأندلسي كان ينسج على منوال النثر المشرقي ، ويسير على نهجه وكبار النثار في الأندلس هم كبار شعرائها أمثال:

١- ابن زيدون

٢- وابن شهيد

٣- وابن حزم

٤- وأبي حفص ابن برد

٥- وابن دراج القسطلي

٦- ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم

وهذا على عكس أساتذة النثر في المشرق حيث كان شعرهم أقل جودة من نثرهم ونذكر منهم على سبيل المثال أبا الفضل بن العميد والصاحب ابن عباد وأبا بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني ولذلك فقد نشأ في المشرق ما يسمى بشعر الكتاب أي شعر هذه الطبقة الممتازة من الكتَّاب الذين لا يرقى شعرهم إلى مستوى نثرهم .

هـ-سمات الكتابة وأسباب رقيها:

لتم استقر العرب في الأندلس ووطدت أركان الدولة، وهدأت الفتن، ونامت الأحداث، سطعت شمس الحضارة، وانتشرت أضواء العلم والمعرفة، واتسعت دائرة العلم، وإن كان ذلك في حدود الدين واللسان؛ لأنهم كانوا أشد الناس حبًّا لهما، وتفانيًا فيهما، وغيرة عليهما، وهو طابع غلب على فترات الضعف في عهد الفاتحين والمرابطين، أما ما عدا ذلك من العهود الأخرى فقد أبدوا فيها من ضروب القول، وفنون البلاغة وألوان الأدب، ومعاني الكلام المعجب المرقص، وأغراهم بهذا أن جهودهم كانت مصروفة له، مقصورة عليه، وأن ملكتهم العربية الأصيلة قد امتزجت بملكات أخرى هي وليدة تلك البيئة الطيبة، و التربة المخصبة، والبساتين الغناء، والجبال الشماء، وكان من حظ الأدب أن لم تزاحمه الفلسفة فيغلب عليه التعقيد والتعمق، أو تسري إليه لوثة السكان الأصليين فتخالطه العجمة، وتطارده العامية، كما كان الحال عند المشارقة... وإلى جانب هذا كله فإن اعتزاز الفاتحين بلغتهم وحرصهم عليها، وزهوهم بها ضمن للأدب القوة والخلود، والذيوع والانتشار، وجعل الأنظار تتجه إليه من السادة والسوقة، و العلية والدهماء . على أن هناك عوامل -أخرى- ثانوية كان لها أثر واضح في ازدهار

الأدب ونموه، وكثرة محصوله، وجودة أنواعه، فإن الخلفاء الذين كانوا يستقدمون العلماء والأدباء، للانتفاع بأفكارهم، والاستعانة بآرائهم، والاستفادة من جهودهم، والاقتباس مما أفاء الله به عليهم، كانوا يبذلون مثل ذلك للموسيقى والغناء، ونحن نعلم أن عبد الرحمن الثاني خف بنفسه لاستقبال "زرياب" وكان يوم قدومه عليه من أعياد الشعب الذي ساهم في الحفاوة به، والابتهاج لحلوله، والسعادة بطلعته... والخلفاء أنفسهم كانوا على جانب عظيم من الثقافة الأدبية خولت لهم أن يتقدموا الصفوف ويتصدروا المجالس، ويتزعموا المعارك التي تكون بين إنسان وآخر من جهابذة اللسان والبيان . وكانت المناصب الكبرى والمراكز العليا، والمسئوليات العظمى، لأولئك الذين عرفوا بالفصاحة، واشتهروا بالبلاغة، ورفعوا لواء الأدب وكان لهم فضل سبق على سواهم في مجال العلم والمعرفة، فلم نر وزيرًا تقلد الوزارة ولا فقيهًا أسندت إليه وظيفة الإفتاء والقضاء دون أن يكون له في هذا الميدان تبريز وفوق؛ ذلك لأن العلم عندهم من غير أن يكون ممزوجًا بالأدب جاف جامد لا قيمة له، ولا ثمرة فيه، ولا جدوى منه . وإذا كان التاريخ السياسي تنعكس مرآته على التاريخ الأدبي، فإن الذي يتقصى أحوال الأندلس يستطيع أن يقول: إن هذه الحياة الحافلة بجلائل العبر والعظات، كان يعتريها من الجزر والمد، والهبوط والارتفاع والخمول والنشاط، والصحة والمرض، ما يحتم علينا أن نقول: إنها مر بها شباب وشيخوخة، وهرم وموت، ولذلك فإن المتحدثين عن التاريخ الأدبي للكتابة الأندلسية لا يستطيعون أن يفروا من تلك الحقيقة المرة.

وكان لأهل الأندلس حرص على حفظ كلام العرب، ورواية أخبارهم، وعد مفاخرهم كما كانت لهم عناية بالعلوم الإسلامية وغيره يحصلونها برغبة أكيدة، ويجمعون كتبها بشغف زائد، فنشأ عن ذلك في رسائلهم ثلاث ظواهر:

١- ما ضمنوه كلامهم من مثل أو حكمة أو شعر مشهور أو ما اقتبسوه من آي القرآن الكريم، وحديث رسول الله يحلون به صدور كلامهم وفصوله، وقد بالغوا في هذا المقام حتى رأينا لابن زيدون رسائل تكاد لا يكون له فيها غير التأليف بين شارد هذه الأمثال والحكم، ولكنه كان في ذلك بارعًا كل البراعة لاستطاعته أن يؤلف من شتات ما جمع صورة تدل على ما في نفسه من معانٍ وأغراض.

٢- ما كثر في رسائلهم من الإشارة إلى حادثة تاريخية، أو مفخرة مأثورة، أو يوم مشهود، حتى غمض كلامهم بسبب ذلك على من كان قليل البضاعة في هذا الباب، واحتاج الدارس له إلى التعقيب والتفصيل لما أجمل، وقد استلزم هذا في بعض الرسائل أن يكون شرحها كتابًا جليلًا يحتوي على كثير من أيام العرب ومفاخرهم والتعريف بأعلام رجالهم، وترى ذلك في كتاب "سرح العيون" لابن نباتة المصري في "شرح رسالة ابن زيدون الهزلية".

٣- ما شاع في كتاباتهم من التورية بأسماء العلوم ومصطلحاتها، وقد توسعوا في ذلك حتى لم يكتفوا بالإشارة الظاهرة، والمصطلح الشائع بل تغلغلوا إلى ما يستعصي على غير المبرزين فيه . وكان لأهل الأندلس زهد في علوم الفلسفة ورغبة عن منطقها تأبى ذلك طبيعتهم الحرة المطلقة من كل قيد، كما يأباه عليهم دينهم الذي اشتد تمسكهم به، وحرصهم على أوامره ونواهيه، ولقد كان لهم في

ذلك شدة لم تعرف لغيرهم، حتى لقد كانت تهمة الزندقة سريعة إلى كل من انحرف عن الجادة، أو ظهر برأي يخالف جماعتهم، فما كان أسرع أن يقتلوه أو ينفوه من بلادهم، ويحرقوا كتبه في ميادين المدن ، ولقد كان لهذا الحال أثر بارز في كتابتهم فقد برئت من تعقيد أساليب المنطق، والتواء عبارات الفلسفة، وغموض إشاراتها، وكثرة ما احتاجت إليه في المشرق من ألفاظ دخيلة، وعبارات نابية، جرتها عليهم الترجمة عن اليونان وغيرهم . لذلك كانت صفحة الكتابة عند الأندلسيين نقية تتمثل فيها:

١-الفطرة ساذجة أو مهذبة التهذيب الذي تسمح به ثقافة عربية خالصة.

٢-شاع الإطناب ، وكثر الترادف، من أثر الفطرة السليمة، واتساع الأساليب أمامهم، وغناهم بالألفاظ، كما كان لاعتمادهم على الخيال، وسعة معرفتهم بالتاريخ أثر في هذا الطول.

٣-وترى أثر هذه العروبة والفطرة ظاهرًا جليًّا في عدم احتفالهم كالمشارقة بأنواع البدء والختام في الرسائل، وبتعويلهم في الخطاب على الكاف والتاء، كما ظهر في الصياغة اللفظية واستعمال أنواع البديع،

٤-تناولوا من أنواع البديع ما يلتئم مع الطبع، ولا يتنافى مع الفطرة، فأكثروا من السجع الذي ترتاح إليه الأسماع، وكثر في كلامهم

٥-كثرت الكتابة المسجعة وسجع الأندلسيين خفيف مقبول قصير الفقرات قد انقاد لهم فأدوا به أدق المعاني، وصوروا ما خفي من الأغراض، وكتبوا به التاريخ

وتراجم الرجال، فما اضطرتهم السجعة إلى نقص في الحكم أو زيادة، وهذان كتابا "قلائد العقيان" و"مطمح الأنفس" للفتح بن خاقان يمثلان ما نريد تسجيله بسجع الأندلس من دقة في الأداء، وخفة في الروح، وجمال في الإيقاع..

٦- اللغة في بلاد الأندلس نبتت فتية ، لأن العرب بالأندلس نزحوا إليها ولغتهم تامة السليقة، بريئة الملكة، ثم كانوا بهذه البلاد جمهرة غالبة، وعنصرًا شائعًا، ولملوكهم الغلبة، وعز السلطان، وهم في الجزيرة في أمن من الطارئين وكذلك كان لنوع ثقافتهم وعزوفهم بطبعهم عن الفلسفة وعلومها كان له في نقاء سليقتهم، وصفاء طبعهم، وسلامة لسانهم أثر غير منكر.

د-كتب برامج العلماء: وتضم شيوخ مؤلفيها، وما أخذوه عنهم من الروايات، وما قرؤوه عليهم من الكتب، وما حصلوا عليه من الإجازات . واختلفت تسمية البرنامج بحسب المؤلِّفين، فيقال له المعجم، والمشيخة، والفهرس، والثبت، والسند والتقييد . ومن هذه الكتب فهرس ابن خبير الأشبيلي (ت٥٧٥هـ)، وبرنامج المجاري (ت٨٦٢هـ)، وثبت البلوي الوادي آشي (ت٩٣٨هـ).

الباب الثاني

صيرورة النثر الفني

الأندلسي

أولاً–مسيرة وحركة :

تطور النثر في مختلف أطوار العصر الأندلسي وعرفت في الصدر الأول من الفتح نماذج قليلة من النثر اقتضتها ظروف الفتح، كالخطابة التي تطلبتها مناسبات سياسية ودينية، والكتابة التي اقتضتها ظروف الحكم، وكتابة العهود والرسائل و التوقيعات. وهو نثر تغلب عليه المسحة المشرقية من حيث الميل إلى الجزالة وقوة العبارة وعدم اللجوء إلى المحسنات، ما عدا خطبة طارق بن زياد التي يدور الشك حول نسبتها إليه.

١–ففي عهدي بني أمية والطوائف: ظهر نوع من النثر المتأثر بنثر الجاحظ، وكان للحكام دور في تشجيع الأدباء على التأليف، وإسناد الوزارة إلى أصحاب الحذق والمهارة، فقد ألف ابن فرج الجيّاني كتاب «الحدائق» وقدمه للحكم المستنصر، وقد

انتدب المعتضد العبادي الأديب الشاعر ابن زيدون لرئاسة الوزارة وإمارة الجيش فسمي بذي الوزارتين: وزارة السيف، ووزارة القلم.

٢-وفي عهدي المرابطين والموحدين: ظهرت طائفة من الكتاب عنيت بالكتابة الإنشائية والتأليف في مختلف الأغراض، كما انتشرت في عهد الموحدين المكتبات التي تضم الكتب النفيسة. وعكفت طائفة من الكتّاب على تأليف كتب جديدة منها «المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية (ت٦٣٣هـ)، أو اختصار القديمة منها «اختصار الأغاني» للأمير أبي الربيع الموحدي (ت٦٠٤هـ)، أو تدوين رسائل تشيد بما وصلت إليه الأندلس من تقدم ثقافي وازدهار علمي منها «رسالة في فضل الأندلس» للشقندي (ت٦٢٩هـ).

٣-وفي عهد بني الأحمر: اتسعت النماذج النثرية فصدر عن الكتاب النثر الديواني الذي يضم الرسائل، والكتابات على شواهد القبور، والعلامة السلطانية والنثر الإخواني بين الكتاب وذوي السلطة، أو بين الكتاب أنفسهم، والنثر الوصفي الذي يتناول وصف الشخصيات والاعلام، ووصف المدن والرحلات مثل رحلة البلوي خالد بن عيسى (ت٧٦٨هـ) وعنوانها «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»، ورحلة القلصادي علي بن محمد (ت٨٩١هـ) . وكثر التأليف في المقامات التي عنيت بتسجيل هموم الحياة، وخرجت عن الكدية والاستجداء إلا في القليل ومنها «مقامة العيد» التي استكدى فيها الأزدي خروف العيد ليرضي زوجته.

ثانياً-خصائص وميزات النثر الأندلسي: الشعر في الأندلس امتداد للشعر العربي في المشرق؛ فقد كان الأندلسيون متعلقين بالمشرق، ومتأثرين بكل جديد فيه عن

طريق الكتب التي تصل إليهم منه، أو العلماء الذين يرحلون من الشرق أو الأندلسيين الذين يفدون إلى الشرق للحج أو لطلب العمل، فكانت حبال الود ووشائج القربى قوية بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه . وكان الأندلسيون ينظرون إلى الشرق وما يأتي منه نظرة إعجاب وتقدير؛ فكانوا في غالب أمرهم مقلدين للمشارقة، ويبدو ذلك واضحا في ألقاب الشعراء وفي معارضاتهم لشعراء المشرق . ولكن هذا التقليد لم يمنعهم من الإبداع والابتكار، والتميز بميزات تخصهم نتيجة لعوامل كثيرة، أهمها البيئة الأندلسية الجديدة الجميلة التي طبعت الأدب الأندلسي بطابع خاص. ويمتاز الشعر الأندلسي في ألفاظه ومعانيه وأخيلته بسمات تبدو واضحة في مجمله، ومنها:

١-تنوع أساليب الإنشاء بتنوع الموضوعات،

٢- الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف،

٣-الإكثار من استعمال الجمل الدعائية والمعترضة،

٤-الباغة في إبراز الصور البيانية،

٥-استعمال المحسنات البديعية،

٦-الارتقاء بأسلوب التعبير

وفي العصور الأخيرة تنوعت أساليب الأداء الفني فاتخذت مستويين:

١-أولهما مستوى الكاتب نفسه كما في نثر ابن الخطيب المُرْسَل، والمسجع،

٢- والثاني الاختلاف على مستوى الكتاب، وقد سار في اتجاهين

أ-يغلب على الأول الإفراط في الزخرفة اللفظية ورائده اسماعيل بن الأحمر (ت٨٠٧هـ) في كتبه «نثير الجمان» و«نثير فرائد الجُمان» و«مستودع العلامة».
ب-ويغلب على الثاني الميل إلى الأسلوب المرسل، ويبدو في رسالة القاضي أبي الحسن النبهاني التي يعدد فيها معايب لسان الدين بن الخطيب، وفي كتاب «الخيل» لعبد الله بن محمد بن جُزَيّ،

٧-وضوح المعنى، والبعد عن التعقيد الفلسفي أو الغوص على المعاني وتشقيقها.

٨- سهولة الألفاظ وسلاستها، والبعد عن التعقيد والغموض، وذلك ناتج عن بساطة الأندلسيين وبعدهم عن التعقيد في كل شيء. ويستثنى من ذلك شعر ابن هانئ وابن دراج، فهما يقربان من شعر المشارقة من حيث الجزالة والقوة.

٩- قلة الألفاظ الدخيلة والأعجمية؛ مع التمسك بالعربية الفصحى .

١٠-التجديد في بعض أغراض الشعر والتفوق فيها، ويبدو ذلك واضحا في رثاء الممالك الزائلة، وفي وصف الطبيعة.

١١-الخيال المجنح: وبراعة التصوير، والاندماج في الطبيعة، ووصف مناظرها الخلابة، وذلك أثر من آثار جمال الطبيعة الأندلسية، وتعلق الأندلسيين بطبيعة بلادهم، وانعكاس ذلك على شعرهم سواء من ناحية الألفاظ المنتقاة أو الخيال أو التصوير والتشخيص.

١٢-التجديد في الأوزان، وذلك باختراع الموشحات، وسوف نتحدث عن الموشحات حديثا مفصلا.

١٣-البعد عن المحسنات اللفظية المتكلفة والمبالغة، وبروز التشبيهات الجميلة والاستعارات الدقيقة وحسن التعليل.

والخلاصة أن الأندلسيين قد قلدوا المشارقة، ولكن هذا لم يمنعهم من الابتكار والتفوق في مجالات عديدة ورد ذكرها فيما سبق.

الباب الثالث

الخطابة الأندلسية

أولاً–مقدمة:

أ–رؤيا:

تعددت فنون النثر العربي في الأندلس، فتناول الأندلسيون ما كان معروفاً في المشرق من خطب ورسائل ومناظرات ومقامات، وزادوا عليها بعض ما أملته ظروف حياتهم وبيئاتهم، وقد شاع فيهم تصنيف كتب برامج العلماء، التي تضمنت ذكر شيوخهم ومروياتهم وإجازاتهم. وكان للكتاب مزية الجمع بين الشعر والنثر والإجادة فيهما. فعندما دخل العرب الأندلس فاتحين كانوا بطبيعتهم ميالين إلى الخطابة، ثم إن عصر الولاة كان عصر اضطراب وحروب وصراع بين العصبيات العربية، فكان ذلك داعياً إلى ازدهار الخطابة في الأندلس في ذلك العصر، فكانت الوسيلة الفعالة في إشعال الحروب وتأييد العصبية القبلية عندما تكون الحروب والنزاعات بين العرب العدنانيين والقحطانيين، وكانت الوسيلة فعالة في الحث على الجهاد وقتال الكفار عندما تكون الحروب ضد نصارى الأندلس . ولقد كانت الخطابة وليدة الفتح، فقد استدعت الغزوات التي قام بها العرب المسلمون قيام الخطباء باستنهاض الهمم، وإذكاء روح الحماسة للجهاد في سبيل الله . ولما

تمزقت البلاد، واستحالت إلى دويلات كثيرة، واستعان بعض أصحابها بالأعداء، كان الخطباء يقفون في المحافل العامة للدعوة إلى لم الشمل وترك التناحر . ومنذ عصر المرابطين، حتى آخر أيام المسلمين في الأندلس، ظهرت الخطب المنمقة، ومنها التي تتضمن التورية بأسماء القرآن الكريم كما في خطبة للقاضي عياض (٥٤٤هـ) التي يقول فيها: «الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه، وبين في سورة البقرة أحكامه، ومد في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه...» . وكانت الخطابة في تلك الفترة تتميز بالسهولة والوضوح والإيجاز والبعد عن التكلف؛ لأن الخطباء من الولاة والأمراء والقادة كانوا عرباً مطبوعين على الخطابة والارتجال. ولكن عندما استقرت الأمور ومال الناس إلى الدعة ضعفت الخطابة الأندلسية، وتفوق الشعر والنثر الفني عليها، وإن كانت الخطابة الدينية قد ازدهرت بفضل بعض العلماء الذين كانوا يجيدون الخطابة كالقاضي منذر بن سعيد البلوطي . وعندما عادت الأندلس إلى عصر الاضطراب والحروب في عهد ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين كانت الملكة والسليقة العربية قد ضعفت، فلم تزدهر الخطابة من جديد مع وجود دواعي الازدهار، بل دخلها كثير من الصنعة اللفظية، وامتلأت بالسجع المتكلف فضعفت، ولم يعد لها تأثير يذكر.

ب-نماذج للخطابة:

١-خطبة طارق بن زياد فاتح الأندلس:

"أيها الناس، أين المفر، البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام،

وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم. وإن امتدت لكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة. وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص فيها متاع النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، والمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا... ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخْذلون".(نفح الطيب للمقري ج١ ص٢٢٥).

شرح المفردات الصعبة :- وزر: حمل تحملونه.- ذهبت ريحكم: ذهبت قوتكم.

-المناجزة. سرعة المقاتلة والا شتباك. نجوه: منجاة. أي إنني معكم في هدأ الأمر الخطير. -العقيان: الذهب. -عزبان: جمع أعزب وعازب أي الذي لم يتزوج.

- أصهار: جمع صهر، القريب وزوج بنت الرجل أو أخته. -أختان: جمع ختن، وهو أبو امرأتك أو أخوها. فالأحماء من قبل الزوج، والأختان من قبل الزوجة، والأصهار تجمعهما.

ج-أشهر خطباء الأندلس :

١-طارق بن زياد فاتح الأندلس ،

٢-والأمير عبد الرحمن الداخل المؤسس الأموي في الأندلس ،

٣-ومنذر بن سعيد البلوطي ،

٤-والقاضي عياض،

٥-ولسان الدين بن الخطيب

ثانياً-الخطابة الدينية في الأندلس

تعددت أنواع الخطابة الأندلسية، وتنوعت موضوعاتها، فشملت أغراضاً شتى من شئون الحياة ما بين :

١-خطابة دينية :

أ-ماهيتها : كان المجال الديني من أرحب المجالات التي تجلت فيها قوة الخطابة ونهضتها، إذ شهد ميدان الخطابة الدينية- سواء أكانت شفوية أم مكتوبة - نمواً واضحاً، فكثر أعلامها، حتى أصبح عددُ من الخطباء يتناوبون فيما بينهم، فكان كل واحد يخطب جمعة في الشهر، وكان يشترط في الخطيب إلى جانب فصاحته وعلمه التحلي بالتقوى والفضل والصلاح وفي إطار حركة الهداية والوعظ التي تزعمها الأتقياء من أهل الورع والزهد دعا الخطباء إلى مجاهدة النفس وكبح جماحها، حتى لا تتهالك على متاع الدنيا الزائل، لترتدع عن أهوائها، وتتبين عاقبة هواها عساها أن ترعوى عن الشر، وترتد عن الباطل،

ب-أشهر خطبائها :

وينتمي إلى عصر المرابطين والموحدين أشهر خطباء الوعظ الديني في الأندلس، منهم:

١-أبو الحسن بن شريح الذي شهد له تلميذه ابن عبد الغفور بالإحسان والفصاحة والبيان في فن الخطابة ورأى " أن هذا الفن من البلاغة قد عفا بالكلية ودرس، ولكنه أي ابن شريح - قد أعاد إليه جدته وبهاءه، وملك وحده أرضه وسماءه ".

٢-والخطيب القاضي عياض الذي شاعت خطبه على ألسنة الناس،

٣-والخطيب الواعظ أبو بكر الطرطوشي،

٤-والخطيب الكاتب أبو المطرف بن عميرة الذي كان قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وغيرهم كثر.

ج-مضامين الخطب الدينية: ترددت في الخطب الدينية كثير من معاني الزهد وأفكاره، وكانت في الغالب تدور حول

١-ازدراء الدنيا،

٢-والندب إلى الاعتبار بالموت

٣-والتذكير بيوم البعث والحساب، وغيرها من المضامين الزهدية التي ذاعت على ألسنة الزهاد في الأندلس . والحق أن الخطبة الزهدية الواحدة كانت في العادة تشتمل على غير مضمون زهدي، وقلما استقلت خطبة زهدية بمضمون زهدي واحد. ولعل من أبرز المضامين الزهدية التي دارت حولها خطب الزهاد والوعاظ

٤-التنفير من الدنيا، وتعداد مثالبها، وكشف حقيقتها الزائفة حتى لا ينخدع المسلم ببرقها الخلب، وسرابها الخادع،

د-أبرز خطبها :

١-خطبة ابن الجنان:

يقول ابن الجنان في خطبة طويلة: "....ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاول الأباطيل وأضغاث الأحلام، ولا تنسينكم خدعها المموهة، وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام، فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدوث

الحوادث، وإلمام الآلام، دار صفوها أكدار، وسلمها حرب تدار، وأمنها خوف وحذار، ونظمها تفرق وانتشار، واتصالها انقطاع وانصرام، ووجودها فناء وانعدام وبناؤها تضعضع وانهدام، ينادي كل يوم بناديها منادي الجمام، فلا قرار بهذه الغرارة ولا مُقام، ولابقاء لساكنها ولا دوام... ".

تحليل الخطبة :

١-مدار هذه الخطبة وفكرتها الجوهرية هو زوال الدنيا، وحوادثها المتقلبة وأن نهايتها الموت والفناء،

٢-هي في جملتها معان واضحة، قريبة الفهم، سهلة المأخذ،

٣- صيغت في لغة عذبة لينة،

٤-اتسمت بالبساطة واليسر،

٥- تأنق صاحبها في اختيار ألفاظها، وشاكل بينها وبين معانيها مشاكلة قوية طبيعية.

٦-سلك الخطيب في التعبير عن معانيه الأسلوب الخطابي

٧- إثارة عواطفه، وتحريك مشاعره، فهو يرسم صوراً متنوعة للدنيا، ويعرض المعنى الواحد بأثواب مختلفة،

٨-الاستعانة بالتكرار والترادف الذي يتولد عنه بالضرورة الإطالة والإطناب.

٩- السجع هو الإيقاع الغالب على هذه الخطبة، وقد التزمه الخطيب في كل أجزائها، قصد تجويد كلامه وتحسينه، وتوليد القيم الصوتية المعبرة، إذ عمد إلى تقسيم الفقرة الواحدة إلى فواصل متساوية، فتبدوا وكأنها القافية في قصيدة متنوعة القوافي، وهو سجع صادر عن طبع، لا أثر فيه لصنعه أو تكلف، استدعته طبيعة الموضوع، لأن " للأسجاع موسيقى صوتية خاصة تتناسب مع العواطف الدينية، والأداء بها يكون أبلغ تاثيراً، وأشد وقعاً ".

١٠-الإفادة من أنواع البديع الأخرى من مقابلة وجناس، إذ بنى فقرات خطبته على المقابلات المتتابعة: " دار صفوها أكدار، وسلمها حرب تدار " ليبرز معاني التغير والتحول في الدنيا، فلا تطمئن لها نفس، ولا ينخدع بمتاعها الزائل عاقل.

١١- الصور الخيالية التي تجلو المعاني وتبرزها، فالاستعارة " ينادي بناديها الحمام " جسمت المعنى وجعلته قادراً على التأثير في نفوس المتلقين.

١٢-ربط الخطيب بين صورة الدنيا الفانية وبين الموت بصفته النهاية الطبيعية لهذه الرحلة الطويلة في الدنيا، ليثير في وجدان المتلقي وإحساسه الخوف والرهبة من الموت، وليدفعه إلى العظة والعبرة.

١٣- المبالغة في التزهيد في الدنيا، وكشف غرورها، ولعل مبعثه ما كان عليه الناس في عهد الخطيب من تهافت على حب الدنيا، وانصراف إلى التمتع بشهواتها، في الوقت الذي تتهاوى فيه قواعد الإسلام في الأندلس تحت ضربات النصارى الإسبان، فيتحقق بذلك الارتباط القوى بين موضوع الخطبة وبين الظرف

الذي قيلت فيه، ما أكسبها ذلك تأثيراً عظيماً في النفوس، وجعلها تعبر عن حياة الأندلسيين أصدق تعبير،

١٤- كانت صدى لبيئة الخطيب وظروف مجتمعه، " إذ يُستحب للخطيب أن يشير في خطبته إلى ما شاكل الحين والحال، فإن ذلك انطق بحذاقته وبراعته، وأدل على وفور بضاعته وصناعته". والواقع أن نزعة الزهد قد واكبت حركة الجهاد في الأندلس ضد النصارى الإسبان، فحذر الكتاب الزهاد أهل الأندلس من الإقبال على الدنيا، والتهافت على متاعها، وحرضوهم على جهاد ديني تكون عاقبته الجنة، وثمرته ديار الخلد،

٢-خطبة ابن أبي الخصال:

يقول ابن أبي الخصال في خطبة له محذراً من الاستنامة إلى الدنيا، حاثاً على الزهد في حطامها: ".... كلا! لا عَتْبَ لكم عليها! قد أمتكم جهاراً بأحجارها، ولدغتكم مراراً من أحجارها، وعمتكم صغاراً بذحولها وأوتارها، وأنتم - على ذلك - تتهافتون تهافت الفَراس على حطامها ونارها. أي مصون منكم لم تنله بهتك، أم أي منيع لم تَغُلْهُ بفتك، أم أي مصاف لها لم تُذِلْهُ بنبذ وترك ؟! فانفضوا -رحمكم الله - بها نفضا، وأجمعوا لها - كما رفضتكم - رفضاً، واستبدلوا من نصب غرورها بالزهد فيها دعة وخفضا... فاستقيلوا - رحمكم الله - عثاركم واستقبلوا عدوكم وخذوا ثاركم، وخلدوا في صحف القبول آثاركم، وأخلصوا لله طاعتكم، وحققوا إنابتكم وضراعتكم"

تحليل الخطبة :

١-رسخ الخطيب مفهوم أن الدنيا فانية وأنها دار ممر، والآخرة دار مقر،

٢- هون الخطيب من شأن الدنيا وزينتها،

٣-ونبه من الغفلة والاغترار بمفاتنها الزائلة،

٤-دعا إلى استلهام العظة من الأقوام التي حكمت بغرورها، فكان مآلها إلى الفناء والزوال،

٣-خطب القاضي عياض:

أ-الخطبة الأولى :

يقول القاضي عياض في إحدى خطبه الوعظية: " أيها الناس، اسلكوا جواد الحقائق، واتركوا بُنيان الطرائق، ولا تغرنكم الدنيا بكواذب المخارق، فإنها كثيرة البوائق، جمة العوائق... كم أهلكت قبلكم من الخلائق، وطوت من الفراعين والعمالق، وطوحت من القياصر والبطارق، وطرحت العصم من أعلى الشواهق، وأسقطت من الجو كل خرق الجناح خافق ".

تحليل الخطبة :

١-هذه إحدى خطب الوعظ الديني الذي عُرف بها القاضي عياض،

٢- استخدم في بنائها خصائص التعبير الخطابي للتأثير في نفوس السامعين وإقناعهم عن طريق

أ-الاستدلال المنطقي،

ب-وضرب الأمثلة بالأقوام السالفة،

ج-وتوظيف الأسلوب التصويري،

د- توظيف وسائل تعبيرية أخرى مؤثرة.

٣- لجأ الخطيب إلى الأساليب الإنشائية مثل

أ-النداء " أيها الناس، لتنبيه الغافلين، وتهيئة أذهانهم لموعظته،

ب-والأمر " اسلكوا " للإرشاد والتوصية،

ج-والنهى " لا تغرنكم "

د-للتحذير والنصح،

هـ-و" كم " الخبرية للمبالغة والتهويل،

و-الأساليب الخبرية مثل " فإنها كثيرة البوائق " فجاءت لتقرير الحقائق، وتأكيدها في الأفهام،

٤-كما وظف الأمثال العربية في نسيجه اللغوي فغدت وكأنها جزء منه، فقوله: " وطرحت العصم من أعلى الشواهق " مأخوذ من المثل العربي " ويحل العصم سهل الأباطح ".

٥- استخدم أسلوب المقابلة في أداء معانيه وتصويرها، للذين غرتهم الحياة الدنيا، وركنوا إليها، بين ما كانوا عليه، وما صاروا إليه" وكم ذي بسطة ومنظر فائق، بعيد الصيت في جميع المواقف، مغتراً بمساعدة دنياه واثق، فأصبح ذا بصر خاشع ونفس زاهق، وحيداً فريداً من كل مؤنس ومفارق، رهيناً بما اكتسبت يداه، وخط في المهارق"

٦-التزام السجع قصير الفقرات قصد توليد لون من ألوان الإيقاع الموسيقى المؤثر، فيما يشبه إلى حد بعيد القافية في القصيدة، إذ سادت الخطبة على وتيرة واحدة من التزام لحرف القاف المقيد الذي يفصل بينه وبين ألف التأسيس حرف مشكل بالكسر. وبرغم ما حققه اختيار القاف حرفاً للسجعة من قيمة صوتية موحية، إذ يثير تردده في نهاية الفصل إحساساً بالفزع والرعب والخوف من المآل الذي يصير إليه الإنسان في هذه الدنيا، فإن التزامه في الخطبة كلها جاء أثراً من آثار التكلف والصنعة التي جعلت من السجع ثقيلاً رتيباً.

٧-الروح التي هيمنت على هذه الخطبة هي الروح الدينية الإسلامية، والتي تبدت في الحث على ازدراء الدنيا، والاتعاظ بالأمم السالفة، والاقتباس من القرآن الكريم في قوله " رهينا بما اكتسبت يداه " مأخوذ من قوله تعالى " كل امرئ بما كسب رهين ". وغلبة الاتجاه الديني على الخطبة العياضية " له ما يسوغه من واقع

الأندلسيين الذين أصبحوا غافلين في ملذات الحياة من أحكام الشريعة مما أوجب لهجة الخطاب الغاضب والعاتب ".

ب-الخطبة الثانية :

وللقاضي عياض خطبة وعظية تدور جلّها حول معنى التوصل على الله يقول فيها: ".... فأجملوا – رحمكم الله – في الطلب توفقوا، وتوكلوا على الله حق توكله ترزقوا، وأريحوا أنفسكم من النصب في طلب الدنيا والكد، فإنه لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد، ألا وإن التوكل على الله والثقة به أحد أبواب الإيمان، ومن أفضل درجات العدل والإحسان، وهو حقيقة العبودية والتوحيد، وموجب الرضا والتسليم للرقيب الشهيد".

تحليل الخطبة :

١-يؤمن الخطيب في هذه الخطبة بأن طريق السعادة إنما يمر التوكل على الله وحده،

٢-وهو يعبر في ذلك عن عاطفة دينية صادقة أفضت إلى طمأنينة نفسية، وإلى طرح الدنيا من قلبه طرحاً تاماً.

٣-ولحاجة الخطيب إلى الإقناع والتأثير وتأكيد معانيه في نفس المخاطب، فقد عمد إلى تضمين خطبته بعض أقوال الرسول الكريم بمعانيها، فقوله " وتوكلوا على الله حق توكله ترزقوا" مأخوذ من قول الحديث الشريف " لو توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتعود بطاناً..." ومثل ذلك قول

الخطيب: " فإنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منك الجد "اقتباس من قول الرسول الكريم: " اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ".

ج- الخطبة الثالثة :

يقول القاضي عياض: " أيها الإنسان، إن الله تعالى قد وهبك من عنايته حظاً اقتضى شرفك موفوراً، وأبرزك من العدم إلى الوجود، ومن الغيب إلى الشهود، واستودع عالمك المختص بدائع الحكمة ما يحار فيه عقل مجتليه، ونضد جواهره النفسية في سلك الازدواج فكل عضو إلى ما يليه "

د-الخطبة الرابعة :

يقول القاضي عياض: ".... وادخروا ما يخلصكم يوم المحاسبة والمناجزة، وانتظروا قوله: يوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ذلك يوم تَذْهل فيه الألباب، وترجُف القلوب رجفا، وتُبدل الأرض، وتُنسف الجبال نَسْفاً، ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلاً ولا صرفا، (ونحشر المجرمين يومئذ زُرقا)، (وعُرضوا على ربك صفا، لقد ئتمونا كما خلقناكم أول مرة، بل زعمتم أنْ لن نجعل لكم موعدا....)

تحليل الخطبة :

١-لقد سلكت هذه الخطبة سبيل الترهيب والتخويف لبلوغ الهدف المنشود، لعل المستمع يرتدع عن غيه، ويشفق من عذاب ربه وبطشه،

٣- شاع في هذه الخطبة الاستشهاد بآي الذكر الحكيم التي تناسب مقام الوعد والوعيد، والتذكير والتخويف، حتى يكون لخطبته من التأثير وشدة الوقع ما لهذه الآيات في نفوس المستمعين من القداسة والقوة،

٤-وقد بسط القرآن الكريم ظلاله على كثير من خطب القاضي عياض " فأكسبها رونقاً جمالياً، ومظهراً بلاغياً راقيا، فقد كان عياض - كما يبدو- مشدوداً بظمأ لاهب إلى توظيف الآيات القرآنية، واستخدام حقائقها وبلاغتها في التعبير عن آرائه "

٥-وحين يعرض الخطيب لمشاهد يوم القيامة، وصوره المفزعة، فإنه يلجأ إلى ربط المستمع بكتاب الله، فمنه يستلهم المسلم مصادر العظة والعبرة، وفي آياته إيقاظ لغفلته، وهداية لحيرته يقول: " فمالك يا حيران، تتلى عليك آي القرآن ولا تزدجر بعظاتها ولا تفرق، ركبت في بحر التسويف ولم تبال التخويف، أخشى عليك أن تغرق، أما علمت أنه لابد من موقف القمر فيه يخسف، والبصر فيه يبرق "

٦-ثم يعمد الخطيب إلى الموازنة يوم القيامة بين منزلة المطيعين ومنزلة العصاة، ليبرز التباين بين المنزلتين، ويحث المؤمن على الفوز بسعادة الدارين: " فهناك يمتاز الفريقان: فنهار أولئك بالشقاوة أظلم وليل هؤلاء بالسعادة أشرق ".

٧-ولنيل سعادة الدار الآخرة، والنجاة من النار وعذابها، فإن الخطيب يسوق طائفة من الوصايا والنصائح الإرشادية الوعظية، فيحذر من الغفلة في الدنيا، ويطلع الناس على حقيقتها، ويذكر بالموت وعذاب القبر، ويدعو إلى التعلق

بصالح الأعمال: " عباد الله، انتبهوا من غفلتكم، وانظروا لأنفسكم، واذكروا ما يُراد بكم قبل حلول آجالكم وانقطاع آمالكم. ولا تغتروا بالدنيا، فإنها كأحلام نائم، وأنتم عنها عما قريب راحلون، وإلى ربكم راجعون، فاذكروا ألم الموت وسكرته، وعذاب القبر وظلمته، والصراط ودقته، والقصاص وحسرته والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، فمن يطع الله ورسوله فله جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين).

٨-الربط بين الذنوب والمصائب التي حلت ببلاد الأندلس وأفضت إلى سقوط كثير من مدنها بأيدي النصارى تلح على أذهان بعض الخطباء الوعاظ فيرددونها في كثير من خطبهم، ويحثون المسلمين على الإقلاع عن المعاصي، ويرشدونهم إلى وجوب تطهير النفوس، وتنقية الضمائر، يقول ابن أبي الخصال في خطبة يحرض فيها على الجهاد، ويصور تفاهة الدنيا، ويذكر بالموت، ويظهر العلاقة بين الذنوب والمصائب التي حلت بالمسلمين: " ألا تستوحشون لتباريح العصر، وركود ريح النصر، وتداعي أمم الكفر، وإجفالنا عن مقاومتهم إجفال الغُفْر، ألا نقلع عن الذنوب التي فَتَّتْ أعضادنا، وقَضَتْ باهتضامنا واضطهادنا"

٤-خطبة ابن عبد الغفور:

ومن الخطب الوعظية الشرقية التي أغرم بها الأندلسيون، وحاولوا محاكاتها قصد إظهار مقدرتهم الفنية خطبة " الفصيح " لأبي العلاء المعري، إذ عارضها ابن عبد الغفور في خطبة له سماها " الإصلاح " خاطب فيها الدنيا الزائلة، وحث الحائرين على التعلق بالعمل الصالح، والمبادرة إلى فعل الخيرات يقول: " يا أم دَفْر، أون

ثديك بطني، وما قلت حسبى ولا قطني، يا حار احفل بحفلك لأخيك وطفلك، ولا يكن سحابك صيفا، ولا معروفك هيفا يعيي الطالبين.. ليس الجمال في شَعَر وَحْف لكن في بدار إلى الخيرات وزحف... يفنى كل شيء ولا يبقى سوى الواحد الحي ".

تحليل الخطبة :

من ملامح هذه الخطبة الوعظية

١-اتسام بعض ألفاظها وتراكيبها بالغرابة إذ تحتاج إلى المعاجم اللغوية لمعرف معانيها ومدلولاتها،

٢-كما برز فيها التزام الخطيب بالسجع ذي الفواصل القصيرة، ليثبت براعته اللغوية، ومقدرته الأدبية على معارضة المعري في خطبته،

٣-سلوك الزاهد يجده يسعى جاهدا لتوطيد صلته بخالقه، فيقبل على طاعته وعبادته، ويروض نفسه ويجاهدها،

٥-خطبة ابن شريح :

ومن معاني الزهد التي تناولتها خطب الزهاد الدعوة إلى التأمل والنظر في مخلوقات الله الدالة على وجوده وقدرته، ليقر الإنسان بوحدانيته، وللتدليل على عظمة خالقها، وليصل من مظاهر الأشياء إلى جوهرها، ومن واقعها إلى مآلها. يقول ابن شريح في خطبة له يحث فيها على النظر الفعلي في آيات الله والاتعاظ بعجائب موجوداته: "...وتفكروا فكم في الأرض والسماء لذى الكبرياء من قدرة، واستدلوا

فكل ذلك يدل بالمشاهدة والاختراع والفطرة، فاذكروا ما أمكنكم الأذكار، واعتبروا يا أولي الأبصار، نجوم زاهرات، وبحار زاخرا وسحاب مسخرات، ورياح ذاريات، وفُلك جاريات، وجبال راسيات، وأرض وسماء، وظلام وضياء، وصباح يردفه مساء، وصيف يخلفه شتاء، ومولود يولد، وفقيد يفقد، والأعمار في خلال ذلك تنصرم كالصريح، والنبت يعود بعد نضرته إلى حال الهشيم، كل يدل على عدم الثبات وسرعة الانبتات، وعودة الجميع إلى الشتات، والجديد إلى حال الرفات ".

تحليل الخطبة :

إن النظرة المتأنية إلى هذا النص الوعظي تهدي إلى القول بأن الخطيب :

١-قد سلك مسلكاً قريباً من نهج القرآن في الإقناع،

٢-وسوق الأدلة والبراهين المنطقية التي تفضي إلى أن ما يُشاهد من عجائب الكون إنما يدل على عدم الثبوت والدوام، وفي هذا عبرة وعظة لمن يعتبر.

٣-كما أن هذه الخطبة تستدعي إلى الأذهان مسلك بعض الخطب الوعظية التي راجت في عصر ما قبل الإسلام على لسان بعض الخطباء من أمثال قس بن ساعدة، والمأمور الحارثي، ويبدو أن الخطيب قد ترسم خطاهما. يقول المأمور الحارثي في خطبة له: " إن فيما نرى لمعتبراً لمن اعتبر، ارض موضوعة، وسماء مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب، ونجوم تسري فتعزب، وقمر تطلعه النحور، وتمحصه أدبار الشهور... إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر، البارئ المصور ".

٤-إن هذه التأملات الكونية التي تدعو إلى التدبر والتأمل في بديع خلق السماء والأرض ودلالة ذلك على الخالق القادرة، والتي تحض على التذكير بمشاهد الموت وما فيها من عبرة وعظة، إنما تشف عن عاطفة صادقة وعميقة امتلأت بها نفس الخطيب ففاضت على لسانه حكماً وعبراً وعظة.

٥- لجأ الخطيب لإقناع سامعيه إلى وسائل فنية مختلفة:

أ-من إيثار الفقرات القصيرة الموجزة،

ب- والإيقاع الموسيقى القائم على السجع والجناس،

ج-وتوشيح الخطبة بآية قرآنية للاستشهاد على صحة فكرته،

د- والتصوير التشبيهي الذي يزيد المعنى وضوحاً وجلاء،

هـ-والطباق المتتابع لتأكيد معناه وترسيخه في الأذهان.

٦-واختار الخطيب لمعانيه ألفاظاً سهلة، وتراكيب واضحة،

٧-وجاءت أفكاره مرتبة تنسجم مع جلال الموقف وعظمته، وهي أفكاره مستقاه كما تبين من ثقافته الإسلامية المختزنة.

٨-التأمل في مخلوقات الله في الكون،

٩-حث الإنسان على التأمل في خلق الله تعالى ودقة صنعته، ليكون ذلك دافعاً له على طاعة الله وعبادته،

٦-خطبة المطرف بن عميرة:

يحث المطرف بن عميرة العصاة على التوبة، ويدفعهم إلى الإقلاع عن الذنوب والمعاصي، ويحفزهم إلى التماس المغفرة من الله: "يا هذا، مداد الذنوب، إنما يمحوه ماء الدمع، أفلا تعدله عيناً باكية، وخطر العقل يقتل غلام الهوى، وأنت تقول أقتلت نفساً زاكية، اعترضتك شبهة الغي، فهذا دليل الرشد قد تبين، وإن خرجت خائفاً من مصر المعصية، فاجهد نفسك على أن ترد ماء مدين ".

تحليل الخطبة :

يهدف الواعظ من وراء دعوته إلى :

١-الإقلاع عن الذنوب،

٢-والإقبال على الله

٣-التأثير في نفوس المخاطبين،

٤-وإقناعهم بموقفه،

٥- استعان بالأسلوب التصويري في تجسيم فكرته، مثل قوله "مداد الذنوب، غلام الهوى "

٦-توظيف الإشارات الدينية والتاريخية، لإثراء نسيجه اللغوي، وذلك عن طريق الاقتباس الخفي من القصص القرآني، وهو يدرج ما اقتبس ضمن موعظته بحيث تخفى للوهلة الأولى على السامع، ولا يفطن إليها إلا الحافظ للقرآن الكريم، فقوله:

أقتلت نفساً زاكية إشارة دينية وتاريخية إلى قصة موسى – عليه السلام – وخروجه من مصر إثر قتله القبطي، وقوله: " اعترضتك شبهة الغي، فهذا دليل الرشد قد تبين " إشارة إلى قبول الله توبة موسى، وعفوه عنه فالقتل كان خطأ دون عمد أو قصد، وقوله: " وإن خرجت خائفاً من مصر المعصية فاجهد نفسك على أن ترد ماء مدين " إشارة إلى قصة خروج موسى – عليه السلام – من مصر قاصداً ماء مدين كما وردت في القرآن الكريم.

٧–خطبة ابن الزيات الخطيب المتصوف :

وخطب أحمد بن الحسن بن علي الزيات خطبة ألغيت الألف من حروفها على كثرة ترددها في الكلام وهي: "حمد ربي جل من كريم محمود، وشكرته عز من عظيم معبود، ونزهته عن جهل كل ملحد كفور، وقدمته عن قول كل مفسد غرور، كبير لو تقدم في فهم لحد، قدير لو تصور في رسم لحد، لو عرته فكرة تصور لتصور، ولو حدته فكرة لتقدر، ولو فهمت له كيفية لبطل قدمه، ولو علمت له كيفية لحصل عدمه، ولو حصر في ظرف لقطع بتجسمه، ولو قهره وصف لصدع بتقسيمه، ولو فرض له شح لرهقه كيف عظيم من غير تركيب قطر. عليم من غير ترتيب فكر، موجود من غير شيء يمسكه، معبود من غير وهم يدركه، كريم من غير عوض يلحقه، حكيم من غير عرض يلحقه، قوي من غير سبب يجمعه، علي من غير سبب يرفعه، لو وجد له جنس لعورض في قيومته، ولو ثبت له حس لنوزع في ديمومته. ومنها تقدس وعز فعله، وتنزه عن اسمه وفصله، جل قاهر قدرته، وعز باهر عزته، وعظمت صفته، وكثرت منته، فتق ورتق، وصور وخلق، وقطع

ووصل، ونصر وخذل، حمدته حمد من عرف ربه، ورهب ذنبه، وصفت حقيقة يقينه قلبه، وزكت بصيرة دينه لبه، ربط مسلك سلوكه وشد، وهدم صرح عتوه وهد، وحرس معقل عقله وحد وطرد غرور غرته ورذله، علم علم تحقيق فنحا نحوه، نقر له عز وجل، بثبوت ربوبيته وقدمه، ونعتقد صدور كل جوهر وعرض عن جوده وكرمه، ونشهد بتبليغ محمد –صلى ربه وسلم عليه–، رسوله وخير خلقه، ونعلق بنهوضه في تبيين فرضه، وتبليغ شرعه فنسخت كل شرع، وجدد عزيمته فقمع عدوه خير قمع، قوم كل مقوم بقويم سنته، وكريم هديه، وبين لقومه كيف يركنون ففازوا بقصده وسديد سعيه، بشر مطيعه فظفر برحمته، وحذر عاصيه فشقي بنقمته . وبعد.. فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون، وهديتكم لو كنتم تعلمون وبصرتكم لو كنتم تتبصرون.. وذكرتكم لو كنتم تتذكرون، ظهرت لكم حقيقة نشركم. وبرزت لكم حقيقة حشركم، فكم تركضون في طلق غفلتكم، وتغفلون عن يوم بعثكم.. والموت عليكم سيف مسلول، وحكم عزم غير معلول، فكيف بكم يوم يؤخذ كل بذنبه، ويشتغل بهمه وكربه عن صديقه وتربه، وتنشر له رقعة، وتعين له بقعة، فريح عبد نظر وهو في مهل لنفسه، وترسل في رضا عمل جنة لحلول رمسه، وكسر صنم شهوته، ليقر في بحبوحة قدسه. ومنها... فتنبه –ويحك– من سنتك ونومك، وتفكر فيمن هلك من صحبتك وقومك، هتف بهم من تعلم، وشب عليهم منه حرق مظلم، فخربت بصيحته ربوعهم، وتفرقت لهولة جموعهم، وذلك عزيزهم، وخسيء رفيعهم، وصم سميعهم، فخرج كل منهم عن قصره ما رمى غير موسد في قبره فهم بين سعيد في روضة مقرب وبين مشقي في حفرة معذب، فنستوهب منه –عز وجل– عصمة من كل خطيئة، وخصوصية تقي من كل نفس جريئة".

تحليل الخطبة:

١-صاحب هذه الخطبة ابن الزيات الخطيب المتصوف من أهل بلش مالقة توفي سنة ٧٢٨هـ، وفي وقته كان الأسلوب الخطابي والكتابي -في المشرق- قد انحط إلى مستوى شنيع. ونزل إلى درك وضيع، وأصبحت سمات التكلف البادية الواضحة تعلن عن الهزال و الضعف والركاكة والتفكك، وقد كان هنالك من يحاول -مع ذلك خلو كلامه من حروف المعجم أو المهمل إعلانًا عن التفصح، وتنويها بمقدرته البيانية متناسيًا أن هذه المحاولة نفسها تنبئ عن تخلفه عن الركب.

٢-وفي هذه الخطبة دليلان على نزول درجتها البلاغية،

أ-أحدهما هذا التكلف الذي أخذ الخطيب نفسه به،

ب- والثاني ذلك التعقيد في الاستدلال والغموض في الإيضاح والتعمية في الشرح، وما أظن خطيب منبر يزعم لنفسه بمثل هذا الأسلوب أنه يستدر دمعًا، أو يرهف سمعًا، أو يثير وجدانًا.

- المضامين الزهدية عند الخطباء الزهاد:

١-الحديث عن يوم القيامة وعلاماته وأهواله،

٢-والتذكير بما ينتظر الإنسان من حساب وحشر،

٣- ونعيم مقيم،

٤-فعلى الإنسان العاقل التزود لمثل ذلك اليوم بالعمل الصالح،

ثانياُ-الخطابة السياسية:

أ-مقدمة : احتل هذا الفن من اللحظة الأولى التي دخل فيها العرب الأندلس مكانة مرموقة، والغرض عند الأندلسيين كما هو عند المشارقة يتمثل في :

١-إيقاظ نار الحماسة

٢-وبث روح الجهاد ،

٣-ونشر الدين

٤-وإخضاع الأقاليم

حيث تمثل الأمراء والخلفاء فصاحة اللغة وعمق البيان واتسم هذا النوع من الخطابة بالسمات التالية:

آ- سهولة العبارة .

ب- البعد عن السجع.

ج- الجريان مع الطبع.

د- القدرة على التأثير.

هـ- الإيجاز والبلاغة

و- وضوح المعاني.

ب- نماذج من الخطابة السياسية :

١-خطبة منذر بن سعيد : جاءت الوفود إلى عبد الرحمن الناصر لتهنئه بالخلافة فقدم ابنه الحكم أبا علي القالي صاحب كتاب "الأمالي"، فقام أبو علي فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه -صلى الله عليه وسلم-، ثم أرتج عليه، وانقطع وبهر، فلما رأى منذر بن سعيد ذلك وكان حاضرًا قام من تلقاء نفسه ووصل افتتاح أبي علي بكلام بهر العقول.... وهذا هو نص هذه الخطبة...." ، أما بعد حمد الله

والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقالًا، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فاصغوا إلي يا معشر الملأ بأسماعكم، وافقهوا عني بأفئدتكم... إن من الحق أن يقال للمحق: صدقت، وللمبطل: كذبت، وإن الجليل -تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه-، أمر كليمه موسى -على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام- أن يذكر قومه بأيام الله -جل وعز- عندهم، وفيه وفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسوة حسنة، وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم، بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم، ورفعت قوتكم، كنتم قليلًا فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم مشعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال، ونكد العيش، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء، أنشدكم الله معاشر الملأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟ والسبل مخوفة فأمنها؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خرابًا فعمرها؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يدًا على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم.. فأنشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد؟ حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزل النسوان وهجر

الأوطان، ورفض الدعة وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطوية صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة نافذة ثاقبة، وريح هابة عالية، ونصرة من الله واقعة واجبة، وسلطان قاهر، وجد ظاهر، وسيف منصور تحت عدل مشهور، متحملًا للنصب، مستقلًا لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة بعد حدتها، فلم يبق لها غارب إلا جبه، ولا ظهر لأهلها قرن إلا جده، فأصبحتم بنعمة الله إخوانًا، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانًا، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين متجهة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، للأخذ بحبل بينه وبينكم جملة وتفصيلًا، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير نائم: { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }[ ] ، وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب، ولكل نبأ مستقر، ولكل أجل كتاب، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، واسألوا المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين -أيده الله بالسداد، وألهمه التوفيق إلى سبيل الرشاد- أحسن الناس حالًا، وأنعمهم بالًا، وأعزهم قرارًا، وأمنعهم دارًا، وأكشفهم جمعًا، وأجملهم صنعًا، لا تهاجمون ولا تذادون، وأنتم -بحمد الله- على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخلفتكم، وابن عم نبيكم -صلى الله عليه وسلم-، فإن من نزع يدًا من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق

من الدين فقد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وقد علمتم أن في التعليق بعصمتها، والتمسك بعروتها، حفظ الأموال وحقن الدماء، وصلاح الخاصة والدهماء، وأن بقيام الطاعة تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، ووضحت الأحكام، وبها سدد الله الخلل، وأمن السبل، ووطأ الأكناف ورفع الاختلاف، وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه -تبارك وتعالى- يقول: { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُم } [ ] ، وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين، الساعين في شق عصاكم، وتفريق ملئكم، الآخذين في مخاذلة دينكم، وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم -صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين-، أقول قولي هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين، مستغفرًا الله الغفور الرحيم، فهو خير الغافرين".

-تحليل الخطبة:

١-كان من حق منذر بن سعيد أن يتهيب هذا الموقف الذي فوجئ به مفاجأة لم تكن مترقبة، والذي حمل عليه حملًا غير منتظر، ومثل هذا الموقف يأخذ بالوعي، ويذهب بالإدراك، ويبدد الخواطر والأوهام؛ فإذا أضيف إلى ذلك احتشاد الجموع من كل حدب، وأن أديبًا كبيرًا قبله كبا به جواده، وخانه بيانه، وقصرت به فصاحته، ولكنه -مع ذلك- استطاع أن يقف على قدميه من غير تلجلج، ويسترسل في حديثه من غير لعثمة، ويتدفق البيان من غير ترو، وجعلنا بجعله في مصاف الأساتذة الكبار والكلام بين يدي رئيس حكومة، أو أمير دولة، أو خليفة شعب من

شأنه أن يحيط به الحذر، ويحفه الحساب والتقدير، ويتقدمه التفكير والرأي، حتى لا يجيء في ثناياه شيء من الفضول، أو معنى من الخلط، أو نوع من القحة، أو بعض من سوء الأدب، وقليل من الناس من يعرض نفسه له، أو يتصدى لاقتحام مجالاته، اللهم إلا إذا كانوا قد تمكنوا من ناصية القول، وتعودوا على المنطق، ومرنوا على الخطابة، وألفوا أن يصولوا في ميادين البلاغة، وأن يردوا حلبات الفصاحة.

٢-ومنذر بن سعيد بهذه الخطبة يعطينا صورة واضحة عن :

أ-بيانه السهل،

ب-وبلاغته الحلوة،

ج- وأدبه الجم، وعقله الواعي،

د-ولسانه الطبع،

هـ-وطبعه السليم،

و-وأسلوبه الواضح،

ز-وصراحته القوية،

ح-وإيمانه الصحيح،

٣-فهو يتحدث عن الخليفة من غير مبالغة ولا ملق، وهو إذ يقول: "إن خلافة أمير المؤمنين لمت شعثكم، وأمنت سربكم، فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كملتكم بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يدًا على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم"، إنما يقرر حقيقة، ويذكر قضية مسلمة، وتظهر صراحة منذر بن سعيد، وإخلاصه لدينه، ومراقبته لربه، من قوله... فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ولا يؤخذ على منذر بن سعيد في هذه الخطبة إلا تكرار بعض المعاني في الخطبة تكرار إذا التمسنا له العذر فيه لم نستطع إلا أن نقول إنه كان يريد أن يملأ ذلك الفراغ الواسع الذي كان يشعر به في هذا الموقف الرهيب.

٤-والخطبة بعد ذلك كله ليست نمطًا من

أ-البيان الرفيع،

ب-ولا البلاغة العالية،

ج- ولا الأدب النقي،

د-ولا الأسلوب القوي،

٥- كانت الخطبة عنوانًا على

أ-ملكة الارتجال،

ب-وحكمة التصرف،

ج- وحسن التخلص،

د-وجرأة القلب،

هـ-وعدم المبالاة بالظروف،

و-وعدم الهلع من الأحداث،

ز-وعدم الفزع من المباغتة..

٢-خطبة لسان الدين بن الخطيب في الحض على الجهاد :

"أيها الناس رحمكم الله.... إخوانكم المسلمون -بالأندلس- قد دهم العدو -قصمه الله تعالى- ساحتهم، ورام الكفر -خذله الله- استباحتهم، وزحف أحزاب الطواغيت إليهم، ومد الصليب ذراعيه عليهم، وأيديكم -بعزة الله تعالى- أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب فلا تخفروه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه، الجهاد الجهاد قد تعين، الجار الجار قد قرر الشرع حقه وبين، الله الله في الإسلام، الله الله في أمة محمد -عليه الصلاة والسلام-، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكشوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة، أعانكم الله تعالى عند الشدائد، جددوا عوائد الخير، يصل الله تعالى لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة -التوحيد- واسوا بأموالكم وأنفسكم تلك الطوائف المسلمة، كتاب الله بين أيديكم، وألسنة الآيات تناديكم، وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائمة فيكم، والله -سبحانه

وتعالى- يقول فيه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم} ومما صح عنه -صلى الله عليه وسلم-: ((من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار)) ((لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم)) ((من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا))..... أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده. ماذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير ممهد إن قال لم فرطتموا في أمتي وتركتموهم للعدو المعتدي تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد، اللهم انصرنا على أعدائك، بأحبائك وأوليائك يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبرًا، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

تحليل الخطبة:

١-صاحب هذه الخطبة فارس من فرسان البلاغة، وكبير من كبار رجالات الأدب، له في كل ميدان من ميادين القول مجال، هيهات أن يدانيه فيه غيره، أو يلحق به سواه،

٢-وإلى جانب هذا فالموضوع شائك، والموقف حرج، والساعة رهيبة، وطن تنهده الأحداث، وتصطلح عليه الخطوب، وفي ذلك الذي يحيط به ويطوقه قضاء على نفوذ الإسلام، وانتكاس لرايته، واستذلال لأهله، ومساومة لهم في أعراضهم،

وشرفهم ودينهم، وليس بعد ذلك مهانة ذليلة، ولا صغار بين، ولا قتل لردح الكرامة،

٣-ولئن كان هنالك أحاسيس تستدر الدمع، وتقطع نباط القلب، وتشيع في النفس القلق والخوف، والذعر والاضطراب، فإنها لا تبلغ ما تبلغه تلك الأحاسيس التي يشعر بها المسلم حينما يدرك أن دولة مجد شامخ، وشرف باذخ، تطيح بها الطوائح الظالمة، والأهواء الغاشمة، من غير ذنب سوى أنها ترفع علم العدالة والحرية والمساواة في الحقوق والمعاملات، وتنادي بالإصلاح والنهوض، والتقدم والرقي، والبر والخير، والسلام والأمن، وتدعو إلى سعادة الدنيا والآخرة.

٤-وقد استطاع الخطيب :

أ-أن يفي بالغرض،

ب-وأن يبلغ الغاية من القول،

ج- وأن يلهب شعور المسلمين بالفجيعة، وتقديرهم للموقف، لولا أن الحال كان يستدعي السيف لا القول، والجهاد لا الحسرة والعبرة، والقوة الضاربة، لا الدمعة الغالبة، ولمن كان يقول لسان الدين بن الخطيب: أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، وبادروا عليل الإسلام قبل أن يموت" وهم كما يقول القرآن الكريم: { تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى } [ ].

ثالثاً-الخطابة الاجتماعية:

أ-مقدمة : وهي نوع من الخطابة يتحدث عن المشاكل الاجتماعية المعايشة لتلك الفترة في الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر وترك البدع، وهجر الأباطيل

ب-نماذج من الخطابة الاجتماعية :

١-خطبة محمد بن تومرت :

وكان محمد بن تومرت -رأس الموحدين- قد جمع أنصاره قبل موته ليعظهم وينصحهم ويوصيهم أن يصلوا بعده ما انقطع من الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، فلما حضروا بين يديه قام -وكان متكئًا- فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على محمد نبيه -صلى الله عليه وسلم-، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم-، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم، والعزيمة في أمرهم، وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم، فانقرضت هذه العصابة نضر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيرًا عن أمة نبيها، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلًا مداهنًا، فلم ينتفع العلماء بعلمهم بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدنيا، وأمالوا وجوه الناس إليهم، ثم إن الله -سبحانه وتعالى وله الحمد- من عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده، وقيض لكم من ألفاكم ضلالًا لا تهتدون، وعميًّا لا تبصرون، لا تعرفون معروفًا، ولا تنكرون منكرًا، قد فشت فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لساني عن النطق به، وأربأ بلفظي عن ذكرها، فهداكم الله بعد الضلالة، وبصركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكم بعد الذلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم

أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم، وأضمرته قلوبهم، وما ربك بظلام للعبيد، فجددوا لله -سبحانه وتعالى- خالص نياتكم، وأروه من الشكر -قولًا وفعلًا- ما يزكي به سعيكم، ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم، واحذروا الفرقة، واختلاف الكلمة، وشتات الآراء وكونوا يدًا واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم، وكثر أتباعكم، وأظهر الله الحق على أيديكم... وإلا تفعلوا شملكم الذل، وعمكم الصغار، واحتقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أولها، وقد اخترنا لكم رجلًا منكم، وجعلناه أميرًا عليكم، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله، من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرته وعلانيته، فرأيناه في ذلك كله ثبتا في دينه، متبصرًا في أمره، وإني لأرجو ألا يخلف الظن فيه، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعًا مطيعًا لربه، فإن بدل أو نكص على عقبه، أو ارتاب في أمره، ففي الموحدين -أعزهم الله- خير وبركة، والأمر لله يقلده من شاء من عباده..

تحليل الخطبة:

١-صاحب هذا النص هو محمد بن تومرت زعيم طائفة الموحدين الذين حكموا الأندلس فترة طويلة من الزمن، بعد أن استنجد بهم أهالي البلاد ليخلصوهم من جماعة المرابطين الذين بالغوا في إيذائهم، والعمل على تفريق كلمتهم، وشق صفوفهم، وكان محمد بن تومرت هذا يلقب بالمهدي، وكان مثقفًا ثقافة عالية تجعله جديرًا بأن يحمل راية الدعوة التي كان يتزعمها، والمؤرخون له يقولون إنه

ارتحل إلى المشرق لطلب العلم، وقد استطاع أن يأخذ عن أساتذة كبار، وشيوخ جلة، أمثال الغزالي والشاشي والطرطوشي وابن عبد الجبار،

٢-وقد عمل على أن يصل إلى الحكم والسلطان، وقيادة الجماهير، وسيادة الناس، من طريق الإصلاح الاجتماعي، القائم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتصدى للتدريس أول أمره- فنشر مذهب الأشاعرة ببلاد المغرب، والتفت حوله جماهير غفيرة، كانت تثق به، وتطمئن إليه، وتأخذ عنه، وتجعله قدوتها في الطاعة، ومثالها في الاستقامة، وشيخها في الطريقة، ومنارها إذا اشتبهت المعالم، ولم تزل البلاد تأخذ بهديه، وتسير على نهج أتباعه من بعده، وتحكم الدين في سلوكها، والقرآن في سياستها، والشريعة الإسلامية في معاملاتها، حتى تغلب عليهم بنو هود أصحاب سرسقطة، وإن كانوا لم يطل بهم العهد، فإن الإسبان قضوا عليهم وعلى سواهم من ملوك الطوائف، ولم يسلم من غائلتهم إلا بنو الأحمر.

٣-والخطبة بعد هذا :

أ-أسلوب من أساليب الوعظ الصادق،

ب-والنصح البالغ،

ج-والإرشاد الصحيح،

د-ينبع فيضها من القلب،

هـ-وتصدر ألفاظها عن إيمان،

و-وتعبر كلماتها عن شعور قوي، ووجدان غير مكذوب،

ز-وتصور قائلها في صورة إنسان كبير القلب، نقي الذهن، صافي العقل، ناضج التفكير، سليم الطوية، بعيد النظر، ليس له غرض حقير، ولا هوى مسف، ولا طيش مرذول،

٤-لا تجول معانيها إلا برؤوس أصحاب الدعوات النبيلة، والأهداف السامية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين،

٥-وهي تبرز لنا ابن تومرت في ثياب الأطهار الأبرار الذين تتفقدهم الإنسانية حينًا بعد حين فلا نجدهم إلا كما تجد الشيء النادر...

٦-ولعل روعتها لم تكن في تنسيق الألفاظ، وجودة التراكيب، بمقدار ما هي في صدق العاطفة والوجدان، والشعور والإحساس، والميل والهوى، والرغبة والنزوع، والإيمان واليقين، والكلام الذي يخرج من القلب لا يستقر إلا في القلب..

الباب الرابع

فن الترسل الأندلسي

أولاً-مقدمة :

-تطور فن الترسل الأندلسي :

١-ارتفع شأن الرسائل التي ساعد على ظهورها بكثرة وانتشارها، كما ساعد على قيامها، وتعزيزها اهتمام الوزراء والأمراء بها، فاستقل فن الرسائل عن الكتابة الديوانية، وعالج موضوعات من الحياة، واعتمد الخيال في ابتكار الصور، وكان هذا الفن في عهده الأول مطبوعا لا يلتزم السجع إلا ما تقتضيه البلاغة، كما هي الحال في رسائل ابن زيدون، وابن شهيد، وبعض رسائل ابن حزم.

٢-ثم صار شأن هذه الرسائل إلى تكلف السجع، والتزيين، وتقلب الجمل على المعنى الواحد، والاكثار من الأدعية والأمثال، والشواهد الشعرية كما في رسائل ابن برد الأصغر، وقويت موجة التنميق في المرحلة الأولى فغلبت الصنعة، وكثر التكلف، وغدا النثر في فن الرسائل عبارات مرصوفة، ومعاني جافة وصورا مسجوعة كما في رسائل " لسان الدين بن الخطيب ".

٣-والرسائل من حيث غايتها في الحضارة الأندلسية قسمان:

أ- قسم فكري يعالج القضايا الاجتماعية والعقلية والنفسية من دون الاهتمام الزائد بوجوه البيان كرسائل "ابن باجة" الفلسفية'

ب-وقسم بياني يهدف إلى إظهار البراعة الأسلوبية كرسالة "ابن برد الأصغر" في السيف والقلم ورسائل "ابن حسداي" في الزهريات.

٤-وقد اهتم كتاب الرسائل الأندلسيون بوصف الرحلات إلى المدن والبلاطات كما هو الحال عند "أبي عبد الله محمد بن مسلم" الذي ترك رسالة «طي المراحل» وفيها يطرق أبواب المدن ويصور كيف حملته الأسفار المرهقة إلى ارتياد المناطق الطوال خلال سنوات عديدة خاض فيها أهوالا جمة، وصعوبات كثيرة ومسالك وعرة، فكانت تلك الرحلات المدونة في الورق من أصعب ما مر به "ابن مسلم " في مراحل عمره .

٥-ولقد كانت الرسالة في القرن الأول من الفتح ذات أغراض محددة أملتها ظروف العصر، وكان لا يلتزم فيها سجع ولا توشية. ثم حظيت كتابة الرسائل بكتاب معظمهم من فرسان الشعر استطاعوا بما أوتوا من موهبة شعرية وذوق أدبي أن يرتقوا بأساليب التعبير وأن يعالجوا شتى الموضوعات، فظهرت الرسائل المتنوعة ومنها الديوانية والإخوانية.

٦-وقد شاع استعمال لفظ «كتاب» عوضاً عن الرسالة، كما ورد في رسالة جوابية كتبها ابن عبد البر (ت٤٥٨هـ) إلى أحد إخوانه يعبر فيها عن مدى إعجابه بأدبه.

٧-كما ترسم الأندلسيون خطا المشارقة في الخطابة، حذوا حذوهم في فن الترسل فكتبوا رسائلهم تبعاً للأحوال السياسية والاجتماعية والأدبية، كانت الرسالة في القرن الأول من الفتح ذات أغراض محددة أملتها ظروف العصر، وكان لا يلتزم فيها سجع ولا توشية. ثم حظيت كتابة الرسائل بكتاب معظمهم من فرسان الشعر استطاعوا بما أوتوا من موهبة شعرية وذوق أدبي أن يرتقوا بأساليب التعبير وأن يعالجوا شتى الموضوعات، فظهرت الرسائل المتنوعة ومنها الديوانية والإخوانية.

٨-فمن الرسائل الديوانية رسالة أبي حفص أحمد بن برد (ت٤٢٨هـ) (المعروف بالأصغر تمييزاً له من جده الأكبر) من كتاب ديوان الإنشاء في دولة العامريين، وقد وجهها لقوم طلبوا الأمان من مولاه. واستخدم فيها الأسلوب الذي يخيف بالكلمة المشبعة بالوعيد.

٩-ومن الرسائل الإخوانية رسالتا ابن زيدون الهزلية والجدية، ورسالة لسان الدين بن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون في الشوق إليه.

١٠-وقد شاع استعمال لفظ «كتاب» عوضاً عن الرسالة، كما ورد في رسالة جوابية كتبها ابن عبد البر(ت٤٥٨هـ) إلى أحد إخوانه يعبر فيها عن مدى إعجابه بأدبه.

ثانياً-أنواع الرسائل : برز لدى الأندلسيين من الرسائل:

١- الرسائل الديوانية:

وتختص بمكاتبات الملوك والأمراء وما يتعلق بشؤون الخلافة من عزل أو تعيين حاكم أو إصدار مرسوم ، وتسمى السلطانية أو الإنشائية ، وهي رسائل تصدر عن دار الحكم وتوجه إلى مسؤولي الدولة من وزراء والعملين عليها ومن الأمثلة عليها هذه المقتطفات مما كتبه أبو حفص بن برد وكان وزيراً (توفي عام ٤١٤ هـ) إلى هذيل بن رزين (الذي حاول أن ينفرد بحكم بعض الجهات) محاولاً إعادته إلى نطاق الطاعة وفيها يقول : (أما بعد: آتاك الله رشدك، وأجزل من توفيقه قسطك ، فإن الله تعالى خلق الخلق غنيا عنهم ، وأنسأهم بمَهَل غير مُهْمِلٍ ، بل ليحصي آثارهم وليبلوا أخبارهم وجعلهم أصنافاً متباينين وأطواراً مختلفين ، فمنهم المختص بالطاعة ومنهم المبتلى بالمعصية وبين الفريقين أقوام خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ولو شاء الله لكان الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، ولذلك خلقهم ، والسعيد من خاف ربه ، وعرف ذنبه ، وبادر بالتوبة قبل فوتها ، واستعطى الرحمة قبل منعها) ويقول في نهايتها مرغباً مهدداً :(وأنت بين طاعة سالفة ، واستقامة موروثة وبين إنابة منتظرة ، وتوبة مستقبلة ، فبإحدى الحالتين تحط الذنوب الكبيرة ، ويغطى على العيوب الكثيرة فالآن عصمك الله : واللبب رَخِيٌّ ، والمركب وَطِيٌّ ، وبابك إلى رضا أمير المؤمنين مفتوح وسبيلك إلى حسن رأيه سهل ولا يذهب بك اللجاج إلى عار الدنيا ونار الآخرة ، إياك ومصارع الناكئين وحذار موارط الغادرين) . وتجدر الإشارة إلى أن الرسائل الديوانية لم تتطور مع مرور الوقت كمثيلتها في الشرق فقد استمرت على حالها موغلة في الجناس والسجع كأسلوب ظل متَّبعاً في الكتابة . ومن الرسائل الديوانية المشهورة رسالة" لسان الدين بن الخطيب "إلى السلطان المنصور بن السلطان

الناصر محمد بن قلاوون والتي شرح فيها حال بلاد الأندلس وما يعتريها من أخطار في الفترة التي كانت أعمدة الدولة الإسلامية تنهار فيها عموداً إثر آخر وتسقط حصنا بعد حصن وقد ورد فيها كثير من الإسراف في السجع وإيغال في الصنعة وتقليد لأسلوب المشارقة .

٢ – الرسائل الأدبية: وهي رسائل غير موجهة إلى أحد بعينه ، ولعها أشبه شيء بالمقالات الحديثة . وقد ظهر في الأندلس فن من فنون الكتابة وهو ما يمكن تسميته بالكتابة العلمية ذات الصبغة الأدبية حيث حرص صفوة علماء وكتاب الأندلس على تسجيل مفاخر وطنهم نثراً كما سجله الشعراء شعراً وأشهر كاتبين في هذا المضمار :

أ–" ابن حزم الأندلسي "المتوفي عام ٤٥٦هـ " حيث ترك الأول ما يقرب من ٤٠٠ مؤلف أشهرها الفصل في الملل والأهواء والنحل / الإحكام لأصول الأحكام / جمهرة الأنساب / الناسخ والمنسوخ / والمحلى في الفقه / طوق الحمامة وغيرها

ب–وإسماعيل بن محمد الشقندي".. وقد برع فيها الأندلسيون واحتوت على المناظرات والمناقشات والقصص الخيالية ، ورسائل الاستعطاف والهجاء الساخر كابن زيدون في رسالته (الجدية والهزلية) ، ورسالة (التوابع والزوابع) لابن شهيد. وأهم ما كتب في الفلسفة (حي ابن يقظان) لابن طفيل.

٣–الرسائل الإخوانية : ويمكن اعتبارها بمثابة " رسائل خاصة " ، وهي لا تختلف عن الرسائل الديوانية في طبيعتها وأسلوبها ومن الأمثلة عليها رسالتي ابن زيدون الهزلية والجدية وقد كتب :

الأولى : على لسان محبوبته ولادة إلى غريمه في حبها الوزير أحمد بن عبدوس
والثانية : كتبها أثناء وجوده في السجن يستعطف فيها أبا الحزم جهور صاحب قرطبة ويسأله العفو ويرجو منه أن يطلق سراحه . وكلا الرسالتين كتبت بأسلوب مسجوع وعبارات منمقة وكانت غنية بالأعلام والأمثال والوقائع التاريخية والأشعار المقتبسة وقد شرح الكاتب جمال الدين بن نباتة المصري رسالة ابن زيدون الهزلية في كتابه (سرح العيون في شرح رسالة بن زيدون)

ثالثاً–شروط كتابة الرسالة الأندلسية : إذا كان المراد بالمراسلات " التعبير عن العواطف والميول وسائر الأحوال، فقد أكثر الأندلسيون من ذلك وقد نبغ جماعة من أصحاب القرائح تعاونوا على ذلك حتى صار للإنشاء طريقة اتخذها أهل العصور نموذجا نسجوا على منواله، وهي الطريقة المدرسية في اصطلاح وقد نضجت هذه الطريقة المدرسية للترسل العربي في هذا العصر

وللطريقة المدرسية في الإنشاء العربي شروط أهمها :

١– السجع: بحيث أصبح التسجيع شرطا من شروط الترسل، وهو ثمرة من ثمار التأنق لما يقتضيه من العناية في إتقانه، فالرسالة المسجعة يظهر فيها التأنق أكثر من غير المسجعة والسجع إذا أتقنت صياغته أكسب المعنى قوة.

٢– الجناس والبديع: وقد أكثر المترسلون الأندلسيون من الجناس، وهو من قبيل الترصيع للأواني أو الوشي للثياب، والجناس والبديع لا يزيد العبارة معنى لكنه يكسبها رونقا، لا سيما مع السجع.

٣- الإكثار من الخيال الشعري حتى أصبح سجعهم كالشعر المنثور لكنه مقفى فلا يعوزه غير الوزن ليصير شعرا يتغنى به، وينشر في الأعياد والأفراح، والمناسبات الأخرى.

٤- كثرة تضمين مراسلاتهم الأمثال والنكت الأدبية، أو العبارات التاريخية أو العلمية التي تحتاج إلى شرح لغرابة لفظها، أو لتعقيد حبكها، وعمق مرادها.

٥- أكثروا فيه من الاستشهاد بالأشعار في أثناء مراسلاتهم، وهو ترصيع جميل يزيد المعنى طلاوة، ووضوحا، ويكسبه قوة على إبداء ما في خاطر الكاتب.

٦-صار للرسائل نمط خاص: فالرسالة تبدأ غالبا

أ-بمخاطبة المرسل إليه بلقبه أو نعته

ب-بعد الإشارة إلى كتابه،

ج-وقد يأتي اللقب مشفوعا بالدعاء بصيغة الغائب،

د- وقد يجعلون الخطاب بصيغة الغائب

هـ-وقد يجعلون الخطاب بصيغة المخاطب في بعض الأحوال.

٧- تفرع الترسل إلى أبواب عملا بسنة النشوء، كما تفرع الشعر، فصارت الرسائل تقسم إلى رسائل للتهنئة والتعزية والمديح والرثاء، وإلى الاخويات والسلطانيات ونحو ذلك.

٧-امتازت مقدماتهم بتقديم

أ-الحمدلة : (الحمد لله رب العالمين)

ب-والصلاة على النبي(صلى الله عليه وسلم)،

ج-وتختم بآية يحسن الختام بها

أو بالحسبلة : (حسبنا الله ونعم الوكيل)

أو السلام :(والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)

ونحو ذلك من الخواتيم الحسنة.

ثالثاً-نماذج من الرسائل الأندلسية :

١- من رسالة في وصف رياض غبها المطر لابن خفاجة الأندلسي:

(ولما أكب الغمام إكبابًا، لم أجد منه إغبابًا، واتصل المطر اتصالًا، لم ألفَ منه انفصالًا، أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته، وينشر صحيفته، فقشعت الريح السحاب، كما طوى السجل الكتاب، وطفقت السماء تخلع جلبابها، والشمس تميط نقابها، وطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت، وقد تحلت، فذهبت في لمة الإخوان نستبق إلى الراحة ركضًا، ونطوي للتفرج أرضًا، فلا أندفع إلى غدير نمير، قد استدارت منه في كل قرارة ماء سحابة غماء، وانساب في تلعته حباب، فترددنا بتلك الأباطح نتهادى تهادي أغصانها، ونتضاحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم ترسل مشى على بساط وشي، فإذا مر بغدير نسجه درعًا،

وأحكمه صنعًا، وإن عثر بجدول شطب منه نصلًا، وأخلصه صقلًا، فلا ترى إلا بطاحًا، مملوءة سلاحًا، كأنما انهزمت هنالك كتائب، فألقت بما لبسته من درع مصقول، وسيف مسلول.

تحليل الرسالة :

أ-صاحب النص هو ابن خفاجة الشاعر الذي اشتهر في شعره بوصف الطبيعة، والحديث عنها، وصفًا يجعلها تنطق بما تكنه، وتفصح عما تضمره، وتعلن عما تحتويه من حس صارخ، وجمال شائع، وفتنة رائعة، وسحر خلاب،

ب- وهو في نثره لا يقل في تصويره وتعبره، وبيانه الفصيح، وبلاغته النادرة، عن ذلك الشعر الذي عودنا أن يملك به زمام قلوبنا وقيادة أفئدتنا، وفي هذا التمثيل الذي يسوقه، والتشبيه الذي يعرضه، والأسلوب الذي يستعين به، يجيء برسم لا يمكن أن يرسمه هذا الذي قد أمسك بيده دهانه وزيته، وريشته وألوانه، ليعبر لك عن خلجات نفسه، وهواتف حسه، وما من إنسان أضناه العمل، وأتعبه التفكير، وأناخت بساحته الهموم، فأراد أن يفزع إلى روض نضير، وماء نمير، وبستان تتغنى أطياره، وتتعانق أشجاره، إلا وهو واجد في حديقة ابن خفاجة -هذه- ما يشبع نهمه، ويروي ظمأه، وريح خياله ويمتع خاطره، ويطيب له وجدانه، وليس بعد هذا الغمام الذي أكب إكبابًا كان بعده المطر الذي جعل الصحو يطلع صفحته وينشر صحيفته، فصارت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت وقد تحلت، وللنسيم أثناء ذلك ترسل مشى على بساط وشي، فلا ترى إلا بطاحًا مملوءة سلاحًا، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول وسيف مسلول.

٢- وكتب الوزير أبو عمرو الباجي يصف -كذلك- مطرا نزل بعد قحط:

(إن لله تعالى قضايا واقعة بالعدل، وعطايا جامعة للفضل، ومنحا يبسطها إذا شاء ترفيهًا وإنعامًا، ويقبضها إذا أراد تنبيهًا وإلهامًا، ويجعلها صلاحًا وخيرًا، وعلى آخرين فسادًا وضيرًا "وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد"، وإنه بعد ما كان من امتساك الحيا، توقف السقيا، الذي ريع به الآمن، واستطير له الساكن، ورجعت الأكباد فزعًا، وذهلت الألباب جزعًا، وأذكت ذكاء حرها، ومنعت السماء درها، واكتست الأرض غبرة بعد خضرة، ولبست شحوبًا بعد نضرة، وكادت برود الأرض تطوي، ومدود نعم الله تزوى، نشر الله رحمته، وبسط نعمته، وأتاح منته، وأزال محنته، فبعث الرياح لواقح، وأرسل الغمام سوافح بماء دفق، ورواء غدق من سماء طبق، استهل جفنها فدمع، وسح دمعها فهمع، وصاب وبلها فنقع، فاستوفت الأرض ريًّا، واستكملت من نباتها أثاثًا ورئيًّا، فزينة الأرض مشهورة، وحلة الروض منشورة، ومنة الرب موفورة، والقلوب ناعمة بعد بوسها، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها، وآثار الجزع ممحوة، وسور الحمد متلوة ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق، ونستهديه في قضاء الحقوق إلى سواء الطريق، ونستعيذ به من المنة أن تصير فتنة، ومن المنحة أن تعود محنة، وهو حسبنا ونعم الوكيل).

تحليل الرسالة :

أ-هذا نص آخر لأحد كتاب الأندلس البلغاء، الذين كانت لهم شهرة ذائعة، ومكانة رفيعة؛ لأنه خدم في كثير من ملوك الطوائف، ووزر لهم، وحظي عندهم،

ب- في نفس هذا الكاتب إيمان بالله، واعتراف بقدرته وإعجاب بسلطانه المصرف، وإرادته المدبرة ونفوذه البالغ، وعلمه المحيط، وسياسته الحكيمة،

ج-أجاد الوصف، وأبدع التصوير،

د- المحسنات البديعية أخذت من جهدها، ولوت عنانه وشاعت في أسلوبه وبدت واضحة في بيانه.

٣- رسالة " لابن "حسداي" الذي كان وزيرًا للمؤتمن والمستعين من ملوك الطوائف بعث بها إلى بعض أصدقائه يدعوه إلى أن يحضر مجلس أنسه :

"(محلك -أعزك الله- في طي الجوانح ثابت وإن نزحت الدار، وعيانك في أحناء الضلوع بادٍ وإن شحط المزار، فالنفس فائزة منك بتمثيل الخواطر بأوفر الحظ، والعين نازعة إلى أن تتمتع من لقائك بظفر اللحظ، فلا عائدة أسبغ بردًا، ولا موهبة أسوغ وردًا، من تفضلك باللحوق إلى مأنس يتم بمشاهدتك التئامه، ويتصل بمحاضرتك انتظامه، ولك فضل الإجمال، بالإمتاع من ذلك بأعظم الآمال، وأنا - أعزك الله- على شرف سؤددك حاكم وعلى مشرع سنائك حائم، وحسبي ما تتحققه من نزاعي وتشوقي، وتتيقنه من تطلعي وتتوقي، وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة، واعترض الاقتراح بارتقاب الصلة، وأنت وصل الله سعدك بسماحة شيمك، وبارع كرمك، تنشئ للمؤانسة عهدًا، وتوري بالمكارمة زندًا، وتقتضي بالمشاركة شكرًا حافلًا وحمدًا لا زلت مهنئًا بالسعود المقبلة، مسوغًا اجتلاء غرر الأماني المتهللة بمنه) .

تحليل الرسالة :

أ-الكتابة الإخوانية لون من الكتابة الإنشائية -أو كتابة الرسائل- ومجال الإجادة فيها غير فسيح

ب-المعاني التي تدور حولها والأغراض التي تتضمنها، ليست ذات أهمية، ولا مما يثير الأحاسيس والعواطف، اللهم إلا أن تكون شوقًا إلى لقاء، أو فرحة بأوبة، أو دعوة إلى زيارة، أو عتابًا على هفوة، أو ما شاكل ذلك مما من شأنه أن يحرك الوجدان، ويوقظ الوعي والانتباه.

ج-وفي هذه الرسالة -الإخوانية- التي يصور فيها الكاتب لصديقه أنه في طي الجوانح ثابت، مع نزوح الدار، وبعد المزار، وأن الصلة المتمكنة له في قلبه هي التي تشفع له أن يدعوه دعوة أخ واثق من الود، طامع في العطف، راج للصلة، ولا موهبة أسوغ وردًا من تفضلك باللحوق إلى مأنس يتم بمشاهدتك التئامه، ولك فضل الإجمال بالإمتاع من ذلك بأعظم الآمال.

د-وفي هذه الجمل التي نقلناها عنوان على بعض التكلف الذي لا نستسيغه نحن الآن في أدبنا الحديث، ولكنه ربما كان -في حينه- مثالا طيبا، ونموذجًا كريمًا، وهكذا لكل وقت ذوق أهله، ومعايير حسنه وقبحه.

٤- رسالة الوزير الكاتب أبو المطرف بن الدباغ إلى أبي الفضل بن حسداي - صاحب الرسالة المتقدمة- يداعبه ويعاتبه، وكان ابن حسداي -هذا- يهوديًا ثم أسلم:

(كنت عهدتك لا تمتنع عن مداعبة من يداعبك، ولا تنقبض عن مراجعة من يخاطبك، فمن أين حدث هذا التعالي، وما سبب هذا التغالي، عرفني –جعلت فداك– ما الذي عراك، ولعلك رأيت الحضرة خلت من قاض فطمعت في القضاء، وجعلت تأخذ نفسك بأهبته؟ وتترشح لرتبته وأنت الآن لاشك تتفقه في الأحكام، وتتطلع شريعة الإسلام، وهبك تحليت بهذا السمت، وتهيأت لذلك الدست، ما تصنع في قصة السبت؟ دع هذا التخلق، وارجع إلى أخلاقك، وعد في إطراقك، وتجاهل ما قبلك جاهل، وتحامق مع الحمقى وأنت عاقل، فلا تمنع لذة الاسترسال، ولا تتبع الدنيا بجد منك في سائر الأحوال، فما أشبه إدبارها بالإقبال، وكثرتها بالإقلال) .

تحليل الرسالة:

أ–هذا نوع من مداعبة الأقران وفكاهات الإخوان، حين ترتفع الكلفة، وتصفو النفوس، ولا يجد أحد غضاضة في أن يقسو على صاحبه، أو يغمزه في جانبه، أو يشتد عليه في المعاملة، أو يتطاول في العتاب، ويتجاوز حدود الصواب،

ب– هذا الأسلوب هو عدم الإسراف في الحسن، ولا المبالغة في البديع، ولا الإفراط كل الإفراط في العناية باللفظ،

ج–ساعد على هذا الانطلاق على السجية الموضوع نفسه،

د–انفعال القلب بهذا العتب الساخر، واللوم العنيف، غطى على الاهتمام باللفظ، والعناية بالتنسيق

هـ-قامت تلك السخرية مقام المحسنات البديعية، فأكسبت الموضوع أناقة وجمالًا استغنى بهما عن العوامل التي يحاولها الناس، ويتكلفها الكاتبون.

٥- وكتب عبد الرحمن محمد بن طاهر -من كتاب ملوك الطوائف- إلى المأمون ذي النون يشكره على مراسلته:

"الآن -أيدك الله- عاد الشباب خير معاده، وابيض الرجاء بعد سواده، وترك الزمان فضل عنانه، فلله الشكر المردد بإحسانه، وافاني أعزك الله -كتاب كريم كما طرز البدر النهر، أو كما بلل الغيث الزهر- طوقتني به طوق الحمامة وألبستني به ظل الغمامة، وأثبت لي فوق النجوم منزلة، وأريتني الخطوب عني نائبة ومعتزلة، فوضعته على رأسي إجلالًا، ولثمت سطوره احتفاء واحتفالًا، وناولنيه الوزير الكاتب أبو الحسن عبدك ونصيحك -أعزه الله- وبشر بدنو الدار، وأشار إلى ما لديك كما يشار إلى النهار، ويعلم الله أني ما أعدني إلا شيعة، ولا أرى ودك إلا دينًا وشريعة، فإنك الموثوق بوفائه وشرفه، والمسكون إلى برد أمنه وطرفه، الذي لا تجد الأيام الفضل متممًا إلا لديه، ولا تعقد الأحرار الأصفاق إلا عليه، ولن أزال العالم بحقك ومقدارك، الناظم في سلكك واختيارك إن شاء الله تعالى.

تحليل الرسالة:

أ-هذه الرسالة لون جديد من كتابة الرسائل

ب-أسلوبه قائم على روعة التشبيه، وحسن الكناية، التي دارت عليهما رحى الحديث، في مثل طوق الحمامة، وظل الغمامة، وأريتني الخطوب عن نائية،

ج-هذا الأسلوب المصنوع لا يخلو صاحبه من هنات يكون الباعث عليها، أو المؤدي إليها هو تلك الصناعة التي تبدو من

-التزام سجع

- طلب جناس، كقوله ما أعدني إلا شبعة، وما أرى ودك إلا دينا وشريعة، فإنك تحس منها تكلف المعنى الذي جر إليه تكلف اللفظ.

٦- وقال ابن شهيد في صدر رسالته المسماة "التوابع والزوابع":

كنت أحن إلى الآداب، وأصبو إلى تأليف الكلام، فاتبعت الدواوين، وجلست إلى الأساتيذ، فنبض في عرق الفهم، ودر لي شريان العلم، وقليل الالتماح من النظر يؤيدني، ويسير المطالعة من الكتب يفيدني، إذ صادف شن العلم مني طبقة، ولم أكن كالثلج تقتبس منه نارًا، ولا كالحمار يحمل أسفارًا فطعنت ثغرة العلم دراكًا، وأعلقت أرجل طيره أشراكًا، فانثالت لي العجائب، وانهالت علي الرغائب، وكان لي أوائل صبوتي هوى اشتد له كلفي، ثم لحقني بعض ملل في أثناء ذلك الميل، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال، فجزعت وأخذت في رثائه فقلت:

تولى الحمام بظبي الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

إلى أن انتهيت إلى الاعتذار من الملل الذي كان فقلت:

وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد ثوى في الضمير

فأرتج على القول، فإذا أنا بفارس بباب المجلس، على فرس أدهم كأنما بقل وجهه، وقد اتكأ على رمحه، وصاح بي أعجزًا يا فتى الإنس، فقلت لا وأبيك للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان، فقال قل بعده:

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته، وقلت: بأبي أنت وأمي من أنت؟ قال زهير بن نمير: من أشجع الجن تصورت لك رغبة في اصطفائك، قلت: أهلا بك أيها الوجه الوضاح، صادفت قلبًا إليك مقلوبًا، وهوى نحوك محبوًّا، وتحادثنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء، ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع، وقلت له: هل حيلة في لقاء من اتفق منهم؟ قال: حتى أستأذن شيخنا، وطار عني، ثم انصرف وقد أذن له، فقال جل على متن الأدهم، فسرنا عليه، وسار بنا كالطير يحتاب الجو فالجو، ويقطع الدو فالدو، حتى لمحت أرضًا لا كأرضنا، وشارفت جوًا لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر، فقال: حللت أرض الجن أبا عامر، فبمن تريد أن تبدأ؟ قلت الخطباء أولى بالتقديم، لكني إلى الشعراء أشوق، قال: فمن تريد منهم؟ قلت: صاحب امرئ القيس، فأما العنان إلي، وإذا واد ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره، فصاح يا عيينة بن نوفل، بسقط اللوى وبحومل ويوم دارة جلجل، إلا ما عرضت لنا، وسمعت من الإنس وعرفتنا كيف إجازتك له، فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير وحيا صاحبك، أهذا هو؟ قال: هو هذا وأبي جمرة يا عيينة، قال: أنشد قلت السيد أولى بالإنشاد، فتطامح طرفه، واهتز عطفه، وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط... وجعل ينشد:

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا

حتى أكملها، قال: أنشد فهممت بالحيصة، ثم اشتدت قوى نفسي وأنشدت:

شجته مغان من سليمى وأدؤر

حتى انتهيت إلى قولي:

ومن قنة لا يدرك الطرف رأسها نزل بها ريح الصبا فتحدر

تكنفتها والليل قد جاش بحره وقد جعلت أمواجه تتكسر

ومن تحت حصن أبيض ذو شقائق وفي الكف من عسالة الحظ أسمر

هما صاحباي من لدن كنت يافعا مقيلان من جد الفتى حين يعثر

ثم قال لي زهير: من تريد بعده؟ قلت: صاحب أبي نواس، قال: هو بدير حنة، قد غلب عليه الخمر، فركضنا ساعة وجزنا في ممرنا بقصر قد أمه، فقلت: لمن هذا القصر يا زهير؟ قال لطوق بن مالك بن أبي الطبع صاحب البحتري: فهل لك في أن تراه؟ قلت: أجل إنه من أساتيذي وقد كنت أنسيته، فصاح: يا أبا الطبع، فخرج إلينا فتى على فرس أشعل، بيده قناة، فقال له زهير: إنك موفق، قال: لا صاحبك أشمخ مارنا من ذلك لولا تنقصه، قلت: يا أبا الطبع إن الرجال لا تكال بالقفزان، أنشدنا من شعرك فأنشد:

ما على الركب من وقوف الركاب

حتى أكملها، ثم قال: هات إن كنت شيئًا فأنشدته:

هذه دار زينب والرياب

حتى انتهيت فيها إلى قولي:

فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون في جوف غاب

وكأن الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب

فكأنما غشى وجه أبي الطبع قطعة من الليل، وكر راجعًا إلى ما وراءه دون أن يسلم، فصاح به زهير: أأجزته؟ قال: أجزته لا بورك فيك من زائر... وسرنا حتى انتهينا إلى أصل دير حنة، فضرب زهير الأدهم فسار بنا في قنتة، ففتق سمعي قرع النواقيس، فقلت: فصحت من منزل أبي نواس: ورب الكعبة... وسرنا نجتاب أديارًا وكنائس وحانات إلى دير عظيم تعبق روائحه، وتصوك نوافحه، فوقف زهير ببابه، وصاح: سلام على أهل دير حنة، فقلت أو سرنا بذات الأكيراح؟ قال: نعم، وأرقلت نحونا الرهابين، مشدودة الزنانير، قد قبضت على العكاكيز، مبيضة الحواجب واللحى، مكثرين التسبيح، عليهم هدي المسيح، فقالوا: أهلا بك يا زهير من زائر، وصاحب أبي عامر، ما بغيتك؟ قال حسن الدنان، قالوا: إنه لفي شرك الخمرة، منذ أيام عشرة، وما نراكما منتفعين به، فقال وعلى ذلك، ونزلنا وقاد إلى بيت، قد اصطفت دنانه، وعكفت غزلانه، وفي دير حنة شيخ طويل الوجه والسبلة، قد افترش أضغاث زهر، واتكأ على زق خمر، وبيده طهر جارة، وحواليه صبية كالظباء تعطو إلى عرارة، فصاح به زهير: حياك الله يا أبا الإحسان، فجاوب جوابًا

لا يعقل لغلبة الخمر عليه، فقال لي زهير أقرع أذنيه بإحدى خمرياتك، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك، فصحت أنشد من كلامك أبي طويلة:

ولرب حان قد أدرت بديره خمر الصبا مزجت بصفو خموره

في فتية جعلوا الزقاق تكاءهم متصاغرين تخشعًا لكبيره

والى علي بطرفه وبكفه فأمال من رأسي لقلب كبيره

وترنم الناقوس عند صلاتهم ففتحت عيني لرجع هديره

فصاح من حبائل نشوته: أأشجعي؟ قلت: أنا ذاك، فاستدعى ماء قراحًا فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إلي من حاله، فأدركتني مهابته، وأخذت في إجلاله لمكانه من العلم والشعر، فقال: أنشد حتى أنشدك، فقلت: إن ذلك أشد، لتأنيسي على أنه ما بعدك لمحسن إحسان فأنشد:

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاح

يعتاده كل محفو مفارقه من الدهان عليها سحق أمساح

لا يدلفون إلى ماء بساقية إلا اغترافًا من الغدران بالراح

ثم قال لي أنشد، فقلت وهل تركت للإنشاد موضعًا؟ قال: لابد لك، فأنشدت:

أصباح شيم أم برق بدا أم سنا المحبوب أورى زندا

هب من رقدته منكسرًا مسبلًا للكم مرخ للردا

يمسح النعسة من عيني رشا صائد في كل يوم أسدا

قلت هب لي يا حبيبي قبلة تشفني من غم تبريح الصدا

الباب الخامس
فن المقامات
الأندلسية

أ-مقدمة :

المقامة : هي نوع من النثر الفني نشأ في المشرق على يد بديع الزمان الهمذاني، ثم حذا حذوه الحريري. فتأثر الأندلسيون بمقاماتهم تأثراً جلياً، إذ كان من الطبيعي أن تثير إنجازاتهما إعجاباً بين الأدباء، وتخلق تياراً من المحاكاة في ميدان الكتابة عموماً وفي فن كتابة المقامات خصوصاً، ومن منطلق هذا الإعجاب عارض أبو طاهر محمد التميمي السرقسطي (توفي بقرطبة سنة ٥٣٨هـ) مقامات الحريري الخمسين بكتاب الخمسين مقامة اللزومية، وهي المعروفة بالمقامات السرقسطية، ولزم في نثرها المسجوع ما لا يلزم. كتب أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي (ت٧٥٠هـ) «مقامة العيد» التي استكدى فيها أضحية العيد من حاكم مالقة الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر. كما ألَّف لسان الدين بن الخطيب مقامات كثيرة منها مقامته في السياسة، وقد بناها على حوار بين بطلين هما الخليفة هارون الرشيد وحكيم فارسي الأصل عربي اللسان، وقد تضمّنت آراؤه وتجاربه الشخصية فيما ينبغي أن تكون عليه سياسة الحكم . وبدخول الأندلس عهد ملوك الطوائف كانت مقامات الهمداني ورسائله قد انتشرت انتشاراً واسعاً حتى أصبح الكثير من الأدباء يؤلفون في هذا الصنف من الأدب . وكانت قد

ظهرت مقامات الحريري في مطلع عهد المرابطين وسرعان ما تداولها الناس على نطاق واسع. وإن العديد من الأندلسيين سمعوا الحريري يبسط مقاماته في حديقته ببغداد، ثم عادوا إلى الأندلس لينشروا ما سمعوا. وبعد موت الحريري تابع تلاميذه بدورهم بسط المقامات باعتبارهم معتمدين من قبل أسيادهم. لقد استخدم الأندلسيون المقامة وسيطاً لوصف الإدارة العامة والعدالة، ومثال ذلك مقالة كتبها ابن الخطيب ذاته، عنوانها "خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف".

ب-أنواع المقامات : للمقامات أنواع متعددة :

أولاً-من حيث الهدف :

١-استخدمت المقامات لأغراض تعليمية

٢-ولأغراض تربوية

٣-وسيلة لتعليم الأدب

٤-وسيلة لتعليم القواعد ليوفر على التلاميذ مشقة الرجوع إلى مؤلفات أكبر في هذه المواضيع.

٥-وتحتوي المقامات إلى جانب ذلك غايات وأهدافاً تربوية وخلقية،

٦- وفيها تعبير ناقد للمجتمع الذي نشأت فيه

ثانياً-من حيث الأسلوب :

إن نظرة فاحصة متأملة إلى المقامات الأندلسية تهدي إلى القول بأن تلك المقامات تناولت عدداً من الموضوعات المتنوعة بطرق وأساليب من مثل:

١-الأسلوب الوصفي

٢-الأسلوب الوعظي

٣-الأسلوب الفكاهي

٤-الأسلوب الأدبي

٥-الأسلوب النقدي

ثالثاً-من حيث الموضوعات:

فقد تعرضت المقامة الأندلسية إلى

١-العلاقات الاجتماعية بين الأفراد

٢-روابط الصداقة، ووصف الصديق

٣-الضيوف والكرم وما يكون من الكرماء من العطاء،

٤- المشكلات اليومية المتعلقة بحرفة الإنسان ومهنته،

وهكذا جاءت المقامة تعبيراً عن حاجة اجتماعية، فقد صورت كثيراً من ظواهر المجتمع، وعالجت جملة من المشكلات الاجتماعية المختلفة ، وعبرت عن آراء الكتاب ومشكلاتهم وهمومهم الذاتية .

ج-موضوع المقامات وأغراضها الاجتماعية:

ركز موضوع المقامات على أغراض متعددة

١-التعبير عن الأهداف الشخصية والغايات الاجتماعية في آن واحد

٢- تبدى الطابع الاجتماعي فيها بشكل أوضح من غيره،

٣-التعبير عن الظواهر الاجتماعية المختلفة وأحوال المجتمع، وكل ما يصورالحياة العلاقات بين الأفراد كظاهرة "الكدية"،

٤-ظاهرة الشكوى من الزمان والمصائب والمحن التي حاقت بالناس

٥-التعبير عن الذات وهمومها

٦-الإحساس بظلم الدهر ،

٧-الإحساس بالضعة والفقر وضيق الرزق والفاقة

٨- عرض تناقضات المجتمع،

٩- تمثيل أخلاق المعاصرين، وأحوال العصر في القرن السادس الهجري

١٠-تصوير حياة العبث والمجون والترف التي انغمس فيها بعض الأندلسيين

١١-رسم النزعة الدينية القوية لدى أفراد المجتمع في الإقبال على الزهد والتعبد والتنسك ، والحرص على حضور حلقات الوعظ والنصح الديني التي كان يعقدها أهل التقوى والورع من الزهاد والصلحاء

١٢-عرض صورة الواعظ الذي يصدر في وعظه عن تقوى وورع وإيمان صادق برسالته التي تروم الهداية والصلاح

١٣-تناول ظاهرة زهد المجان، وحياة الترف والمجون التي انغمس فيها بعض أفراد المجتمع،

١٤-تصوير صحوة الضمير عند ذوي النفوس الحية والضمائر اليقظة ، ويسجل ما يدور في نفوسهم من صراع بين الرغبة في التمادي في حياة العبث واللهو وبين نيتهم الصادقة في التوبة وهجر الذنوب،

١٥- تصوير طبيعة التركيب الاجتماعي بين طبقة غنية تملك رفاهة الحياة ، وأخرى تحرم منها، بين فئة سائدة، وأخرى مسودة بقصد دفع الأغنياء إلى العطاء والسخاء

١٦- وصف عادات بعض طوائف من المجتمع والتعرف الى تقاليدهم في الحياة

"١٧-وصف التكسب من ترقيص الدببة

١٨-انتحال مهنة من المهن : كما في مقامة "الطب والعرافة"، حيث يَبرز البطل وقد انتحل مهنة الطب والعرافة معاً ، فهو يداوي فتى أصابه المرض ففعل به الأفاعيل،

١٩-تصوبر صورة "القاضي" لنقل مشهدا من مشاهد الظلم الاجتماعي والفساد والرشوة

٢٠-الحثُ على الزهد في الدنيا ومتاعها، ووصفها بأسوأ النعوت والصفات من: غدر وخداع وتقلب

٢١-الحث على التوبة،

٢٢.-تصوير العابثَ اللاهي

٢٣-تصوير الموت ، والتنبيه إلى نهاية كل حي، والتذكير بثواب الآخرة والبعث والحساب، بغية زجر السامعين، وتنبيه الغافلين وتخويفهم ، فالموت خير واعظ ، وهو قدر محتوم لا يستطيع المرء الفكاك منه

٢٤-الاعتبار" بمن مضى من الأمم وعظام الرجال الذين أخنى عليهم الدهر ، وعصفت بهم يد الحدثان ينساب صوت وعظي تأملي ينبه إلى المصير الذي آلت إليه تلك الممالك والدول.

٢٥-حث أصحاب الثراء والمال الى البذل والعطاء وملء بطون الأيتام والفقراء والمعوزين ويدعو إلى الكرم والسخاء والبذل في سبيل الله، ويحتقر البخل وعبادة المال ويحذر من الطمع والحرص

د-أسلوب الكتَّاب في المقامات :

تميزت أساليب الكتَّاب في مقاماتهم بما يلي

١- جاءت اللغة مفردات وأساليب مصوغة في تراكيب بسيطة سهلة واضحة،

٢-استخدام السجع بشكل سائغ،

٣-إبراز ثقافته الدينية التي تناسب الموضوع

٤-الاقتباس من آي الذكر الحكيم؛ ليفخم بها موعظته، ويجتذب نفوس السامعين فمن الاقتباس باللفظ والصيغة

٥-اختتام المقامة الوعظية بقطعة من الشعر

٦- التزام السجعة أكثر من حرفين ، وهذا السجع يفيض عذوبة ورقة، وينسجم مع المعنى العام للمقامة، إذ وقع في النفس موقع الاستحسان ؛ لما أحدثه من أثر في تجميل العبارة وتزيينها وإثرائها بالموسيقى.

٧-إبداء مهارة فائقة في عرض المواعظ والتوجيهات الوعظية ، إذ غالباً ما كانت الشخصية المقامية تتنكر في صورة الولي الصالح، والعابد الناسك الذي يزهد الناس في الدنيا، ويحبب إليهم الآخرة، ويذكرهم الموت والثواب والعقاب، ويحثهم على التوبة وهجر الذنوب والمعاصي، ويحض على التجمل بمكارم الأخلاق من قناعة وصبر وسخاء وتقوى

٨-التعبير عن ذلك بطريقة البوح الذاتي التي تعتمد المكاشفة والمصارحة بعيداً عن الخداع والتمويه.

الباب السادس

فن القصة

في الأندلس

أ-مقدمة :

تعد القصة أحد الفنون الأندلسية المميزة ، والتي سبق فيها الأندلسيون أقرانهم المشارقة ؛ وهي لم تحظ في بلاد الأندلس بما حظي به الشعر من اهتمام غير أن القليل الذي وصل منها جدير بالعناية والدراسة والتحليل . ومن المعروف أن الأدب الوعظي يعد نمطاً من أنماط الأدب، وهو ذو صلة وثيقة بالخطابة ، وقد ازدهر هذا اللون في الأندلس ازدهاراً واسعاً طوال عصر المرابطين والموحدين، إذ حلفت المساجد بالوعاظ القصاص الذين كانوا يقصون على الناس أساطير الأولين، وسير الأنبياء وأخبار الصالحين، يستخلصون منها العبر والعظات، ليردوا إلى الناس إيمانهم، فتنفعل بمواعظهم نفوس الحاضرين فيبكون خشوعاً لله تعالى. فأبو عبد الله البغدادي (ت ٥٤٦هـ) كان يجلس بمسجده المنسوب إليه بمدينة جيان " للوعظ والقصص وإيراد حكايات الصالحين، ونحا منحى الزهد، وكانت العامة تنتاب مجلسه ". وكذلك فقد اتخذ خطباء الزهد في هذا العصر القصة سبيلاً للتمثيل،

يعظون السامعين بأحداثها، لأنها أكثر إثارة للمتلقي، وبعثاً لأحوال التشويق والمتعة فيه. وقد دأب القصاص الوعاظ على استلهام مادة قصصهم الوعظية من القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وسير الأولياء الصالحين، فكان القرآن الكريم الينبوع الفياض الذي ينهل منه الوعاظ عظاتهم، ففيه أحسن القصص وأبلغ المواعظ عن الأمم التي ذهبت جراء عصيانها والأخرى التي أطاعت واعتصمت بتعاليم دينها.

ب-أشهر الوعاظ القصاص :

١-اشتهر الزاهد أبو المطرف بن عميرة من بين هؤلاء الوعاظ بمجالسه الوعظية التي كان يصنعها للواعظ الصالح أبي محمد بن علي بن أبي خرص. ومما جاء فيها قصة آدم-عليه السلام - وإهباطه من الجنة إلى الأرض، يقول على سبيل العظة والعبرة:"... ويح ابن آدم، أما يذكر قصة أبيه ويقيس يسير جنايته بعظيم ما يجنيه، زاد عليه في المخالفة طولاً وعرضاً، فليته أعطى من ندامته ولو بعضاً، زلة أهبطته من جنة المأوى، وأدنفته حتى أعلى بالشكوى".

٢-وعُرف ابن عميرة نفسه" بفصوله الوعظية " التي تناول في بعضها قصة العبد المؤمن بلال بن رباح مع الظالم الطاغية أمية بن خلف، إذ صَوّر فيها صبر بلال وجلده على تعذيب أمية إياه، مشيراً إلى مقتل أمية على يد بلال في غزوة بدر الكبرى: " يوم الفتح تبين خطل بن أخطل وقد عاذ بمكانه، ونعم بال بلال حين غاظ بعض السامعين بأذانه، ما ضرَ الحبشي لونه وإن ازدروه، ولا نفع القرشى كونه أحد مَنْ داروا حوله وداروه. ما أقرضه بمكة سلا لسيف العدوان وانتضاه، فعلى

القليب قضاه إياه... أَغرى به سفهاء مكة، فحشر عليه سراة يثرب، أقعده في الرمضاء حتى حمى، فضربه بسيوف حتى برد".

صاحب رجاء غد عسى الأيام أن

واستعمل البُقيا حذار جناية

ضل امرؤ جعـل الإسـاءة عـــادة يرجعن قوما كالذي قد كانوا

تجزى بها، فكما تُدين تدان .....ويرى المتوبـــة أنـــها إحســـــان

تحليل القصة الوعظية :

١-تبرز في هذا النمط من القصص الوعظي قدرة القاص على استكمال أدوات القصص الديني حتى يستميل قلوب السامعين وافئدتهم قصد التأثير فيهم،

٢-استخدم القاص ألوان البديع المتنوعة من سجع وجناس وطباقِ لتحلية ألفاظه وتنميق معانيه ولتوليد الإيقاع الموسيقي المعبر عن المعاني والأحاسيس،

٣- وشى قصصه بأشعار من نظمه هو، فجاءت أبياته في نهاية الفصل الوعظي بمثابة تلخيص لمضمونها، وإيذاناً للمستمع بنهاية القصة وختامها.

٤- أظهر الواعظ قدرته البارعة على عرض الأحداث التاريخية بطريق مشوقة، مستخدما

أ- الإشارات والتلميحات

ب-معتمداً على ثقافة المستمع وفهمه،

فهو يشير إلى انتصار المسلمين في غزوة بدر، وإلى منزلة بلال بكونه مؤذن الرسول الكريم، ويومئ إلى المكان الذي ألقى فيه زعماء مكة يوم بدر وهو القليب.

٣-أما القاضي عياض فيقول: "أين الذين عتوا على الله وتعظموا، واستطالوا عباده وتحكموا، وظنوا أنه لن يقدر عليهم حتى اصطلموا " وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا، وجعلنا لمهلكهم موعدا". وغرهم الأمل، وكواذب الظنون، وذهلوا عن طوارق القبر وريب المنون وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون، حتى إذا رأوا ما يوعدون، فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً....، فإنه يُذكر بمصير الأمم الداثرة التي ذهبت جزاء عصيانها في خطبة له ضمنها آيات من القرآن الكريم للتأسي والاعتبار ، واتخذ بعض الوعاظ من قصص الأنبياء والمرسلين وأخبار الصحابة والأولياء الصالحين مادة للوعظ، ليقتدي الناس بسيرتهم، ويسلكوا سبيلهم،

٤-ولابن الجنان: موعظة بليغة سرد فيها قصة بعث المصطفى عليه، الصلاة والسلام، وما مرَ به من مواقف وأحداث، قصدا استخلاص العظة والعبرة. يقول في خطبة طويلة له متحدثاً عن معجزات الرسول الكريم محمد: " أُعطى من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر، وكانت له في الغار آيات بينات خفى بها على القوم الأثر، وارتج لمولده إيوان كسرى، وخمدت نار فارس وكان ضرمها يتسعر، وأتته أخبار السماء فما عمي في الأرض الخبر، فحدث عن الغيوب وما هو على الغيب بضنين. وجعل له القرآن معجزة تتلى، يبلى الزمان وهي لا تبلى، وتعلو كلماتها على الكلم ولا تُعلى ".

تحليل القصة :

أ-يحاول الواعظ أن يربط بين قصص الملوك الغابرين ذوي الجاه والسلطان وبين ما يجري في عصره من أحداث،

ب- يتخذ من تلك القصص وسيلة للتحريض على الجهاد ضد أعداء الدين، فما دام الموت قد أفنى أولئك الجبابرة، فلم تبق إلا آثارهم،

ج-على الأندلسيين استخلاص العبرة والعظة من سيرتهم، فينبذون الدنيا وزخرفها، وينهضون إلى جهاد حملة الصليب الإسبان.

ه- يقول ابن أبي الخصال في خطبة له:"... سلوا الكواكب إذا اصطفت في مجاريها، ورفت في غدائر الظلماء مداريها عن ملوك نيط سلطانهم بالنجوم وصياصيها، وعقت تيجانهم بنواصيها، عاجلهم -والله - الفطام، وهمدوا كما همد الحطام، ولفظتهم تلك القصور والآطام، فما عندهم من أمان لخائف، ولا مقام لطائف، فهل منكم مشتر لنعيمهم وملكهم بدرهم زائف، لشد - والله - ما زهدتم وبخلتم، ولحق أن تخالوا فيما خُولتم غير ما خلتم ".

وجُماع القول في الخطب الدينية ذات الطابع الزهدي القصصي أنها نجحت في:

أ-استيعاب المضامين الفكرية للزهاد،

ب-وفي إيصال رسالتهم إلى الناس قصد إرشادهم وهدايتهم إلى طريق التقوى والرشاد،

ج-ورسم قواعد السلوك الاجتماعي القويم الذي يجدر أن يتحلى به كل عاقل أريب.

د-استمالة القلوب والأسماع،

هـ-الحرص على إقناع جمهور المخاطبين بما يدعون إليه،

و- لم يغفل القصاص الجانب الفني لقصصهم،

ز- اعتنوا بقصصهم الوعظية عناية كبيرة إلى جانب فصاحتهم العربية، وبلاغتهم الفطرية، فبدت آثار الإعداد واضحة جلية في كثير منها،

ح- مال القصاص الوعاظ إلى الاهتمام بإعداد قصصهم، والتأني في صوغها، والتدبر في ترتيب أجزائها، وتنسيق أفكارها،

ط-وكانوا يتأنفون في أسلوبها فيدبجون فيها ضروبا من المحسنات البديعية، والصور البيانية التي تزيد المعنى وضوحاً وجلاء، والفكرة رونقاً وبهاء،

ي- استكملت الوعظية الوعظية على أيديهم مقومات بنائها الفني.

وكانت قصصهم في نجوة من الضعف والتردي في زخرف التصنيع اللفظي ،

ك-كما أنها كشفت بوضوح عن قدرة الأندلسيين في القصة الوعظية الخطابية، وعما كانوا يتمتعون به من فصاحة القول وحسن البيان، وجودة الإبانة والإفهام، مما أهلهم للالتحاق بركب الخطباء المقتدرين.

ج-ومن نماذج القصة في الأندلس :

١-قصة (حي بن يقظان) :

أ- وهي الشهيرة تعتبر من أكبر الأعمال القصصية في العصور الوسطى ليس في الأدب العربي فقط وإنما في العالمي أيضاً . ومؤلفها هو الفيلسوف المشهور والطبيب والعالم والشاعر ابن طفيل وهو تلميذ لفيلسوف الشرق ابن سينا وقصته أقرب إلى القصص الفكري منها إلى الأدبي وتنبع أهمية هذه القصة من هدفها السامي وهو الوصول إلى معرفة الخالق والإيمان به .

ب-وملخصها : أن (حي) هو وليد من غير أبوين ولد في جزيرة نائية من جزر الهند (وفي رواية أخرى ولد لأم وأب في جزيرة نائية وخافت أمه من أخيها لأنها تزوجت دون علمه فألقت بحي في اليم فحمله المد إلى ساحل جزيرة أخرى) والمهم أن حي كان وحيدا ومحتاجا إلى رعاية وعناية فأخذته ظبية شفقة عليه فقامت بإرضاعه وتغذيته حتى نشأ على سليقة أمه الظبية فحاكى الظباء في حركاتها وطباعها وأصواتها ثم كبر وتعلم المشي وفكر في أمر نفسه وقارن بينها وبين الحيوانات الأخرى في الجزيرة فوجد أن الحيوانات مستورة وهو عار فعمل على ستر جسمه بأوراق الشجر ولاحظ أنها مسلحة وهو أعزل فتسلح بعصا من أغصان الشجر ثم فكر بالصيد لاستغلال يديه وأخذت أساليب تعامله مع الحياة ترقى وتتحسن فاستعاض عن أوراق الشجر بأثواب من جلد النسور التي كان يصيدها ثم بدأ يهتم بما عنده من حواس مختلفة وتستمر قدراته في النمو نتيجة التجارب التي قام بها حتى تعلم غزل الصوف والملابس وتعلم فن البناء وأخذ يقوم بتشريح الحيوانات وعمل تجارب عليها ومعرفة وظائف أعضائها .. وهكذا وكأن هذه القصة باختصار تحكي عن تطور الإنسان وعن طريق التجربة والاستقصاء

يتمكن ابن طفيل من الوصول إلى نتيجة ومن ثم إلى ثانية وثالثة وهكذا وهو ما يعتبر شيئاً جديداً في ميدان القصة الفلسفية والعلمية التجريبية وتأخذ معارف (حي) في التقدم فيدرس المعادن والروح التي فطن إلى وجودها حين اكتشف قلب الظبية (أمه) بعد أن ماتت وشرح جسمها وتقوده دراسته إلى النفس الحيوانية والنباتية وتتطور معارفه لتصبح فلسفة يؤمن بها إيمان المجرب وفي النهاية يتوصل إلى قناعة مفادها أن لكل موجود علة فأخذ يبحث عنها في الطبيعة ولكنه لم يتوصل لشيء لأن جميع ما في الطبيعة عرضة للتحول والفساد فحاول أن يبحث عنها في الأجرام السماوية وبدأ يتأمل السماء وهل هي ممتدة إلى ما لانهاية أم لا ثم تصورها كروية واستنتج ضرورة وجود أفلاك خاصة بالكواكب وهكذا شيئاً فشيئاً وبالتدريج يقترب من معرفة الله ويصل لنتيجة مفادها أن محرك هذا العالم لا بد أن يكون خارجاً عنه ثم أمعن النظر في فكرة الله الخالق وتوصل لمعرفة صفاته نتيجة دراسته لصفات الكائنات ثم ينتهي الأمر به إلى الإيمان بالله خالق الكون ومبدعه وأنه قادر وعاقل وعليم ورحيم .. ولا شك أن هذه القصة العظيمة والرائدة متأثرة شأنها شأن كل قصة بشخصية صاحبها الفيلسوف ولذلك فقد غلبت على تفاصيلها

ج-(قصة حي بن يقظان وأثرها في قصة "روبنسون كروزو" وغيرها)

١-تطور القصة في الأدب العربي :

في التراث العربي يوجد أكثر من قصة بعنوان "حي بن يقظان"، وهي قصة رمزية تدور حوادثها حول شخصٍ نشأ في جزيرة وحده، وتصور علاقته بالكون والدين.

أول منشئ لقصة "حي بن يقظان" هو الفيلسوف ابن سينا، ثم أعاد كتابتها شهاب الدين السهروردي، وبعدها صاغها من جديد الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل، ثم كانت آخر رواية القصة بقلم ابن النفيس. على أن أشهر مؤلفٍ من بين هؤلاء

الأربعة هو ابن طفيل، وبسبب من شهرة هذه الرواية قيل إن قصصًا غربيةً مثل قصة "روبنسون كروزو" و"طرزان" قد نسجت على منوالها. وتُعَرِّف مادة "حي بن يقظان" في الموسوعة العربية العالمية برواية ابن طفيل فتقول: "حي بن يقظان اسم قصة عربية أصيلة، تمثل شكلًا باكرًا من أشكال الفن القصصي عند العرب، وتبرز أنماط فهم الناس للدين؛ كما تظهر آراء صاحبها ومفهومه في قضايا العقل والشريعة، كتبها فيلسوف غرناطة في القرن السادس الهجري، أبو بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل القيسي، توفي سنة خمسمائة وإحدى وثمانين للهجرة، ولم ينقل لنا من أعماله –وهو مقل– غير هذه القصة". وقد صب ابن طفيل في هذه القصة آراءه القائلة بعدم التعارض بين العقل والشريعة، أو بين الفلسفة والدين في قالب روائي قصصي . نشأ بطل القصة حي بن يقظان في جزيرة معزولة، وكان قد ألقي فيها طفلًا أو نشأ بشكل طبيعي من مادتها وترابها، وبعد أن نمى وترعرع تأمل الكون الذي حوله ، فوصل إلى حقيقة التوحيد بالفطرة؛ وينتقل إلى جزيرة أخرى فيلتقي بشخصين وهما سلامان وأبسال؛ يعلم الأول منهما أهل الجزيرة الذين يتدينون تدينًا سطحيًّا الحقائق الإلهية، والوجودية عن طريق ضرب الأمثال. بينما يميل الثاني إلى التأمل والنظر العقلي، وفيه نزعة صوفية . ويدرك حي بعد أن يتفاهم مع أبسال أن ما توصل إليه من إدراك لحقائق الوجود والكون بالفطرة، وما ورثه أبسال عن طريق النبوة، إنْ هُو إلا وجهان لحقيقة واحدة؛ فالكونُ واحد، والخالق واحد، وهو رَبُّ السّماوات والأرض، وصانع الموجودات، قد نصل إليه عن طريق التأمل الذاتي كأفراد، لكن الجماعات بحاجة إلى طريقة أبسال في ضرب الأمثال الحسية لمعرفة ذلك؛ لأنه لا قدرة للعامة على إدراك الحقيقة المجردة، التي قد يصل إليها أصحاب التأمل الذاتي والنظر العقلي . والنبوة حق ولا بد منها، والخليقة بحاجة إليها للوصول إلى معرفة الخالق، إلا أن حيًّا لا يُكاشف أهل

الجزيرة بالحقيقة كلها، ويعود مع أبسال إلى الجزيرة الأخرى؛ ليعبدا الله عبادة روحية خالصة، حتى يأتيهما اليقين . وتمثل القصة العقل الإنساني الذي يغمره نور العالم العلوي، فيصل إلى حقائق الكون والوجود بالفطرة والتأمل، بعد أن تلقاها الإنسان عن طريق النبوة، وتؤكد قصة (حي بن يقظان) على أهمية التجربة الذاتية في الخبرة الفكرية والدينية، وقد تركت آثارها على كثير من الجامعات والمفكرين، وترجمة إلى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة، وكان ابن طفيل أستاذًا لابن رشد الذي سماه "دانتي" الشارح الأكبر، والذي عن طريقه عرفت أوربا في عصر النهضة أرسطو وفلسفته . وقد حدد ابن رشد ثلاثة مستويات لفهم الشريعة والدين، وهي ليست بعيدة عن جوهر ما ذهب إليه ابن طفيل في (حي بن يقظان) فهناك فهم العامة للدين، وفهم الخاصة، وفهم خاصة الخاصة وإن كان للدين جوهر واحد لا يتغير. وقصة "حي بن يقظان" وضعت أيدينا على تباين المستويات لهذا الفهم، بشكل روائي قصصي يطرح قضية فلسفية، وتتجلى براعة ابن طفيل في مزجه الأفكار الفلسفية الدقيقة بالقصص الشعبي، وفي جهده؛ لتسويغ هذه الأفكار منطقيًّا وفنيًّا، وقد ذكر ابن طفيل تأثره في قصته بفلسفة ابن سينا. وفي قصة "حي بن يقظان" جوانب من النضج القصصي، وإن كان قالب القصة ليس سوى إطار لصب الآراء الفلسفية والصوفية في النص، وقد قدر كثير من النقاد هذا الجهد القصصي لابن طفيل، فعدوا "حي بن يقظان" أفضل قصة عرفتها العصور الوسطى جميعًا. وهناك روايتان تفسران لنا ولادة حي بن يقظان:

الأولى: تقول إنه تولد من الطين في جزيرة جنوب خط الاستواء تسمى الوقواق، وهي جزيرة خيالية كما هو واضح. على حين تخبر الأخرى بأنه قد ولد لأميرة تزوجت على غير إرادة أخيها الملك من قريب لها اسمه يقظان، ثم أنجبت منه طفلًا، فخافت أن يفتضح أمرها، فيعاقبها أخوها عقابًا رهيبًا هي وزوجها؛ لأنه لم

يكن لها أن تتزوج، فألقت ابنها في تابوت وأسلمته لليم الذي حمله إلى جزيرة مهجورة، وتصادف أن مرت في هذا المكان الذي استقر فيه التابوت غزالة كانت تبحث عن ابنها الذي فقدته؛ فسمعت صوت بكاء فاتجهت نحوه فعثرت على الطفل الرضيع؛ فأخذته وأرضعته وحضنته وربته، وكانت تحمله هنا وهناك أينما اتجهت.

ويكبر حي بن يقظان، وتمر حياته بسبع مراحل –كما يقول كاتب مادته في النسخة العربية من موسوعة "الويكيبيديا":

أما الأولى: فهي إرضاع الغزالة لحي وحضانتها له، ورعايتها إياه حتى بلغ سبع سنوات. ثم بعد ذلك وفاة الغزالة وتشريحها من قبل حي لمعرفة سبب الوفاة، حيث بدأت تتكون عنده المعرفة عن طريق الحواس والتجربة. وهنا تأتي

المرحلة الثالثة، وكانت في اكتشافه للنار.

أما المرحلة الرابعة : فكانت في تصفحه لجميع الأجسام، التي كانت موجودة حوله، إذ جعل يكتشف الوحدة والكثرة في الجسم والروح، وتشابه الكائنات في المادة واختلافها في الصور. وتلا ذلك

المرحلة الخامسة : وكان في اكتشاف الفناء، وهذا شجعه إلى الخروج من رصده إلى معارف في العالم بقدمه وحدوثه . وعند بلوغه الخامسة والثلاثين من عمره، بدأ حي مرحلته السادسة: وهي مرحلة الاستنتاج بعد التفكير؛ فتوصل إلى أن النفس منفصلة عن الجسد كما شعر داخله بالشوق إلى واجب الوجود. وأخيرًا يدرك حي بن يقظان في المرحلة السابعة أن سعادته لا تتحقق إلا في ديمومة المشاهدة، لهذا الموجود الواجب الوجود، والبقاء داخل حياةٍ رسمها هو نفسه .

وتمثل هذه القصة العقل الإنساني الذي يستطيع بجهده الذاتي، أن يصل إلى حقائق الكون والوجود بالفطرة والتأمل، كما تؤكد أهمية التجربة الذاتية في الخبرة الفكرية والدينية؛ وقد تركت آثارها على كثير من الجامعات والمفكرين، وتُرجمت

إلى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة . ومن الواضح أن ابن طفيل في إيراده الروايتين اللتين تفسران مولد حي بن يقظان، إنّما يجري على ما جاء في القرآن من أن الإنسان كجنس من أجناس الكائنات، قد جبل من الطين إلا أنه كأفراد لا يتولد من التقاء رجل بامرأة؛ ذلك أن هذه القصة إنما تعكس تطور الجنس البشري على الأرض، منذ خلق الله الإنسان إلى العصر الذي كان يعيش فيه ابن الطفيل، إذ من المستحيل أن يتطور الفرد الإنساني بهذه الطريقة، وبتلك السرعة، وعلى هذا النحو السلس الذي تطورت به حياة ابن يقظان في القصة، فيكتشف النار مثلًا، ويَعرفُ التّشريح والتفكير العلمي المنهجي، والتأمل في الكون، والإيمان بالله وبالآخرة، وبضرورة الأخلاق الفاضلة، وما إلى هذا بتلك البساطة وفي ذلك الزمن القصير. فهي بهذا قصة رمزية؛ ولولا رَمزيتها لما قبلنا أن تقوم غزالة بإرضاع طفل بشري، أو تنظفه من وساخاته وفضلاته، أو تحميه من الآفات الطبيعية، والهوام والحشرات والزواحف التي تعج بها الغابات، أو تحمله على ظهرها من مكانٍ إلى مكان، ببساطة لأن هذا أمر مستحيل، وقد صب ابن طفيل في هذه القصة آراءه القائلة بعدم التعارض بين العقل والشرعية، أو بين الفلسفة والدين – كما سبق أن أومأنا– وهي فكرة كان يتبناها بعض الفلاسفة والمتكلمين المسلمين، إذ كانوا يقولون إن العقل الإنسان كافٍ وحده لوصول الإنسان إلى الحقيقة، بشأن وجود الله ومعرفة صفاته والإيمان بالآخرة. ومن ثم وجوب تحمل المسؤولية، واستحقاقه للحساب الإلهي، وما يترتب عليه من الثواب والعقاب. وكانوا يفسرون الرسول في قوله تعالى: { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء: ١٥] بأنه هو العقل، وهذا التفسير يعكس شططًا في التفكير، إذ لا تساعد عليه اللغة العربية، ولا النصوص القرآنية والحديثية، ولا ريب أن نصوصًا قرآنية

مثل قوله تعالى في سور "النساء": { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِأَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } [النساء: ١٦٣ – ١٦٦] ، أو قوله في سورة "طه": { وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى } [طه: ١٣٣، ١٣٤] هذه النصوص تدل دلالة قاطعة على أنه لا حساب، ولا ثواب، ولا عقاب، دون رسل من البشر لا من العقل؛ حسبما يقول بعض الفلاسفة والمتكلمين المسلمين. ثم لو كان العقلُ وحده كافيًا في مثل تلك الأمور؛ فلماذا لم يكل الله عباده إليه؟ كذلك فمعروف لنا جميعًا من تجارب التاريخ الواقع الأليمة، أنه رغم إرسال الأنبياء والرسل، فما زال وسيظلُّ هُناك كفارٌ، ومنافقون، ومتمردون، ومتشككون، ومؤمنون، وعصاة، وظلمة ومستبدون وطغاة، ولصوص وقتلة، وزناة وكسالى، وسبابون، ومغتابون؛ فما بالنا لو ترك الله البشر لعقولهم المجردة دون أن يبعث إليهم برسلٍ تأخذ بيد تلك العقول، وتشير لها إلى الطريق، وتعينها على التفكير السليم.

٢ – "حي ابن يقظان" وتأثيرها في الفكر والأدب العالمي:

في التراث العربي يوجد أكثر من قصة بعنوان (حي بن يقظان) وهي قصة رمزية تدور حوادثها حول شخص نشأ في جزيرة وحده، ويتصور علاقته بالكون والدين، وأول منشئ لقصة (حي بن يقظان) هو الفيلسوف ابن سينا، ثم أعاد كتابتها

شهاب الدين السهروردي، وبعدها صاغها من جديد فيلسوف أندلسي بن الطفيل، ثم كانت آخر رواية القصة بقلم ابن النفيس. على أن أشهر مؤلف بين هؤلاء الأربعة هو ابن الطفيل، وبسبب شهرة هذه الرواية قيل: إن قصصًا غربية مثل مثل قصة (روبنسون كروزو) و (طرزان) قد نُسِجت على منوالها . وقد صَبَّ ابن الطفيل في هذه القصة آراءه القائلة بعدم التعارض بين العقل والشريعة، أو بين الفلسفة والدين في قالب روائي قصصي، إذ نشأ بطل القصة (حي بن يقظان) في جزيرة معزولة، وكان قد ألقي فيها طفلًا، أو نشأ بشكل طبيعي من مادتها وترابها حسب الروايتين المختلفتين، وبعد أن نما وترعرع تأمل الكون من حوله؛ فوصل إلى حقيقة التوحيد بالفطرة . ثم انتقل إلى جزيرة أخرى، فالتقي بشخصين هما: سلامان وأبسال، فوجد الأول منهما يعلم أهل الجزيرة –الذين يتدينون تدينًا سطحيًّا– يعلمهم الحقائق الإلهية والوجودية عن طريق ضرب الأمثال، بينما يميل الثاني إلى التأمل والنظر العقلي وفيه نزعة صوفية. ويُدرك حي بعد أن يتفاهم مع أبسال أنّ مَا توصل إليه من إدراك لحقائق الوجود والكون بالفطرة، وما ورِثه أبسال عن طريق النبوة، إن هو إلا وجهان لحقيقة واحدة؛ فالكون واحد، والخالق واحد، وهو رب السماوات والأرض وصانع الموجودات، قد نصل إليه عن طريق التأمل الذاتي كأفراد، لكن الجماعات بحاجة إلى طريقة أبسال في ضرب الأمثال الحسية لمعرفة ذلك؛ لأنه لا قدرةَ للعامة على إدراك الحقيقة المجردة التي قد يصل إليها أصحاب التأمل الذاتي والنظر العقلي. والنبوة حق ولا بد منها، والخليقة بحاجة إليها للوصول إلى معرفة الخالق، إلا أن (حي بن يقظان) لا يكاشف أهل الجزيرة بالحقيقة كلها، بل يعود مع أبسال إلى الجزيرة الأخرى؛ ليَعْبُد الله عبادة رُوحيّة خالصة؛ حتى يأتيهما اليقين. وتمثل القصة العقل الإنساني الذي يغمره نور العالم العلوي، فيصل إلى حقائق الكون والوجود بالفطرة والتأمل بعد أن تلقاها الإنسان

عن طريق النبوة، وتُؤَكِّد قِصّة (حي بن يقظان) على أهمية التجربة الذاتية في الخبرة الفكرية والدينية، وقد تركت آثارها على كثير من الجماعات والمفكرين، وترجمت إلى اللاتينية واللغات الأوربية الحديثة. وتتجلى براعة ابن طُفيل في مَزْجِه الأفكار الفلسفية الدقيقة بالقصص الشعبي، وفي جهده لتصوير هذه الأفكار منطقيًّا وفنيًّا. وهُناك رِوايتان تفسران لنا ولادة (حي بن يقظان): ، على حين تخبرنا الرواية الأخرى بأنه قد ولد لأميرة تزوجت على غير إرادة أخيها الملك، من قريب لها اسمه يقظان، ثم أنجبت منه طفلًا؛ فخافت أن يفتضح أمرها، فيعاقبها أخوها عقابًا رهيبًا هي وزوجها؛ لأنه لم يكن يريد لها أن تتزوج، فألقت ابنها في تابوت، وأسلمته إلى اليم الذي حمله إلى جزيرة مهجورة. وتصادف أنْ مَرّت في المكان الذي استقر فيه التابوت غزالة كانت تبحث عن ابنها الذي فقدته، فسمعت صوت بكاء فاتجهت نحوه، وكان أن عثرت على الطفل الرضيع فأخته وأرضعته وحضنته وربته، وكانت تحمله هنا وهناك أينما اتجهتْ. ويَكْبُر (حي بن يقظان)، وتمر حياته في سَبعِ مراحل كما يقول كاتب مادته في النسخة العربية من موسوعات "اليوكيبيديا": أما الأولى: فهي إرضاع الغزالة لحي وحضانتها ورعايتها له، حتى بلغ سبع سنوات، ثم بَعد ذلك وفاة الغزالة وتشريحها من قبل (حي بن يقظان)؛ لمعرفة سبب الوفاة، حيث بدأت تتكون عنده المعرفة عن طريق الحواس والتجربة. وهنا تأتي المرحلة الثالثة وكانت اكتشافه للنار. أما المرحلة الرابعة فكانت في تصافحه لجميع الأجساد التي كانت موجودة حوله، إذ جعل يَكْتَشِفُ الوحدة والكثرة في الجسم والروح، وتشابه الكائنات من مادة، واختلافها في الصور. وتلا ذلك المرحلة الخامسة وكانت اكتشاف الموت ، وعند بلوغه الخامسة والثلاثين من عمره بدأ حي مرحلته السادسة، وهي مرحلة الاستنتاج بعد التفكير؛ فتوصل إلى أنّ النّفس مُنْفَصلة عن الجسد، كما شعر داخله بشوق إلى واجب الوجود. وأخيرًا يُدرك

(حي بن يقظان) في المرحلة السابعة أن سعادته لا تتحقق إلا في ديمومة المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود، والبقاء داخل حياة رسمها هو لنفسه. هذا عن (حي بن يقظان)، فماذا عن سيرورتها خارج النطاق العربي الإسلامي، وتأثيرها في الفكر والأدب العالمي؟ تجيب على ذلك ذات المادة من موسوعة "يوكوبيديا" في نسختها الإنجليزية؛ فقد جاء فيها: أنه ظهرت لرواية ابن طفيل ترجمة لاتينية عام ألف وستمائة وواحد وسبعين، بقلم "إدوار بيكوك"، الذي كان قد أعدها منذ عام ألف وستمائة وستين، وأنها قد أوحت للمفكرين بمفهوم " tabula raza " أي: العقل في حالته الأصلية قبل أن تدخله أية فكرة أو معلومة، وقبل أن يخبر الحياة بعد، أو يعرف أي شيء فيها، وهو المفهوم الذي اعتبره " jon lok " في رسالات هذه " any say konsarneing human andr standeng ". وكان لوك تلميذًا لبيكوك وقرأ ترجمته لكتاب ابن الطفيل وأبدى إعجابه به، كما أوحت (حي بن يقظان) إلى "روبرت بويل" بكتابة روايته " tha asbiring natshral last ". التي تقع أحداثها أيضًا فوق جزيرة من الجزر. أما أول ترجمة إنجليزية فقد صدرت عام ألف وستمائة وستة وثمانون بقلم جورج أشول، اعتمادًا على الترجمة اللاتينية السالفة الذكر، ثم تُرجمت مرة أخرى إلى الإنجليزية من العربية مباشرةً عام ألف وسبعمائة وثمانية، على يد "سايمون أوكلي" لتظهر بعدها ترجمتان إنجليزيتان أخريان، كما أشار مُحَرِّر المَادة إلى اطلاع "سبينوز" الفيلسوف الألماني على الرواية، وتشجيعه أحد أصدقائه على ترجمتها للهولندية، فكانت الترجمة التي ظهرت سنة ألف وستمائة واثنتي وسبعين، والتي ظهرت ترجمة هولندية أخرى بعدها بنحو ثلاثة عقود . كما ظهرت ترجمتان ألمانيتان أخريان، وقد اطلع الفيلسوف الألماني "لايبرتس" على إحدى هاتين الترجمتين، وأثنى على ما في الرواية من فلسفة عربية إسلامية ثَنَاءً كبيرًا،

وبالمثل اطلع أساتذة السُّوربون على ترجمة "بيكوك" وكانوا مبتهجين بها أشد الابتهاج. وفي سنة ألف وسبعمائة وتسعة عشر ألهمت إحدى الترجمات الإنجليزية ل (حي بن يقظان) الروائي "دانيل ديفو" فكتب روايته (روبنسون كروزو) التي جرت وقائعها في إحدى الجزر المهجورة، وهو العمل الذي يعده مؤرخو الأدب أول رواية إنجليزية. ثم ظهرت رواية أخرى عام ألف وثمانمائة وواحد وستين في بريطانيا على نفس الشاكلة، تحتوي على أشياء كثيرة جدًّا من ترجمة "بيكوك" ل (حي بن يقظان)، ثم أُريدَ طَبع تَرجمة بيكوك ثانية عام ألف وثمانمائة وأربعة، أما ترجمة ابن يقظان إلى الأسبانية؛ فقد تأخر ظهورها لبداية القرن العشرين، ثم ظهرت ترجمة فرنسية لها في نفس العام بقلم المستشرق "بيونج تيه". وفضلًا عن هذا كانت (حي بن يقظان) إرهاصًا على نحو من الأنحاء برواية "جان جاك روسو إيميل" كما أن بينها وبين رواية (كيبرينج ذا جانجل بوك) شبهًا واضحًا، وكذلك بينها وبين رواية (طرزان) التي ألفها "إيدجر رايس باروزوا" وتدور حول طفل رضيع هجرته أمه في جزيرة استوائية خالية من السكان، حيث التقطته وربته واعتنت به ذئبة من الذئاب . وهناك كتاب مفكرون أوروبيون غير قليلين تأثروا بترجمة "بيكوك" لرواية (حي بن يقظان) منهم "جون وردس" و"روبرت داركلي" و"كارل ماركس" وطائفة "الكويكرس" المعروفة وآخرون، وفي عام ألف وسبعمائة وواحد وعشرين، ظَهر في أمريكا كتاب (ذا كريشتن كروسفر) للكاتب والقسيس الأمريكي البيروتاني "كوتوننيسس" الذي لم يمنعه وسمه المسلمين بالكفر من استيحاء رواية (حي بن يقظان) في كتابه هذا، ولا من الاعتراف بتأثيره عليه ناظرًا إلى حي بطل الرواية بوصفه نموذجًا للفيلسوف النصراني المثالي، ومحاولًا من خلاله فهم نفسية سكان أمريكا الأصليين الهنود الحمر؛ بغية تحويلهم إلى مذهبه "البرويتاني". وكما نرى فإنّ مَادة (حي بن يقظان) في النسخة

الإنجليزية من "اليوكوبيديا" تُؤكِّد أن تأثير رواية ابن الطفيل على الآداب الأوربية تأثير واسع وعميق، وعند هذه النقطة نحب أن نتوقف بشيء من التفصيل إيذاء قضية الصلة بين تلك الرواية وبين رواية (ديفو روبينسون كروزو) . ولكن علينا أولًا أن نتعرف إلى "روبنسن كروزو" مثلما تعرفنا إلى (حي بن يقظان)، وسوف يكون اعتمادنا على ما جاء المادة الخاصة بتلك الرواية في موسوعة "اليوكوبيديا". فنقول: إن (روبنسون كروزو) قصة كتبها "دانيال ديفو" ونشرها لأول مرة عام ألف وسبعمائة وتسعة عشر، وهي تحكي قصة شاب عاش في جزيرة من الجزر وحيدًا لمدة طويلة دون أن يقابل أحدًا من البشر، ثم بعد عدة سنوات التقى بأحد المتوحشين؛ فعلمه بعض ما وصل إليه الإنسان المتحضر من تقدم فكري، واتخذه خادمًا له، ثم يعود في نهاية القصة مصطحبًا خادمه إلى أوربا حيث العالم المتحضر. وتبدأ القصة بمغادرة "كروزو" إنجلترا في رحلة بحرية في سبتمبر عام ألف وستمائة وواحد وخمسين، مخالفًا رغبات والديه، ويسطوا القراصنة على السفينة ويصبح "كروزو" عبدًا للمغاربة، إلّا أنّه تَمكّن من الهرب في زورق، ويُصادِفُ قائدَ سَفِينَةٍ بُرتُغالية قادِمة من الساحل الغربي لأفريقيا، في طريقها إلى البرازيل، وهُناك يصبح "كروزو" مالكًا لإحدى المزارع، وينضم إلى بعثة الجلب الجديد من أفريقيا، وتغرق السفينة التي كان هو فيها وقتذاك في عاصفة تبعد أربعين ميلًا في البحر في مدخل نهر "أورونيكو" في الثلاثين من سبتمبر عام ألف وستمائة وتسعة وخمسين، فيموت جميع رفاقه ما عداه، ويتمكن من استخلاص الأسلحة والأدوات والتجهيزات الأخرى التي كانت في السفينة قبل أن تتحطم تمامًا وتغوص في الماء. ثم يقوم ببناء سور لمسكنه الذي أقامه في كهف، ويصنع أيضًا تقويمًا يتعرف به على أمور الزمن، من خلال علامات يَرْسُمها على قطعة خشب، كما يقوم بالصيد وزراعة الذرة، ويتعلم صناعة الفخار وتربية الماعز، ويقرأ

الإنجيل، ويصبح متدينًا فجأةً، ويشكر الله على مصيره؛ فلا شيء قد فقد منه إلا المجتمع والناس. وفي يوم من الأيام يكتشف "كروزو" جماعة من آكلي لحوم البشر يقومون بزيارة الجزيرة؛ ليقتلوا ويأكلوا أسراهم، وعندما استطاع سجين من السجناء الهروب انضم إلى "كروزو" فسماه " friy day " باسم يوم الجمعة الذي قابله فيه؛ فشرع يعلمه الإنجليزية حتى يستطيع التفاهم معه، كما نجح في تحويله إلى النصرانية. ثم تصل مجموعة جديدة من السكان الأصليين؛ لصنع وليمة أخرى من اللحوم البشرية، ويستطيع جمعة و"كروزو" قتل معظمهم مع الاحتفاظ باثنين من أسراهم أحدهما: هو والد جمعة، والثاني: إسباني، ويُخبر هذا الأخير "كروزو" أن مجموعة من الإسبان الذين غرقوا موجودون على هذه الجزيرة، ويَسْتَطِيعُ الثلاثة بمعاونة هؤلاء الإسبان بناء سفينة يبحرون بها إلى إسْبانيا، بيد أن سفينة إنجليزية تظهر، ويَقَعُ فيها تمرد يسيطر أصحابه على السفينة، ويتركون قائدهم على الجزيرة، إلا أن القائد بمساعدة "كروزو" يستطيع استردادها . ثم يسافر "كروزو" بعد ذلك إلى البرتغال للبحث عن قائده القديم، الذي يخبره بأن مزرعته "الدراجينية" قد جعلته رجلًا غنيًّا، ومن البرتغال يسافر "كروزو" برًّا إلى إنجلترا، عن طريق إسبانيا وفرنسا؛ حيث يتعرضون في جبال "بريليز" لهجوم من الذئاب، ويُقَرِّر "كروزو" بيعَ مزرعته، إذ إن عودته إلى البرازيل تستلزم تحوله إلى الكاثولوكية، وهو ما لا يريده ثم يتزوج ويصبح أبًا لثلاثة أطفال، وعندما تموت زوجته ويُصبح أرملًا، يعود إلى جزيرته في نهاية المطاف . هذا، وقد سبق أن رأينا كيف تُؤكد مادة (حي بن يقظان) في موسوعة "اليوكيبيديا" أنّ للرواية العربية تأثيرًا كبيرًا على نظيرتها الإنجليزية، وهو رأي من الآراء المختلفة في هذه القضية، التي ينقسم قارضوا الأدب بشأنها، إذْ هُناك من يتجاهل تلك الصلة، ولا يتحدثُ عنها، بل لا يومئ إليها مجرد إيماء، وكَأنّها لم تكن، ولا يُمكن أن تكون. وهناك

من يؤكد أن "ديفو" إنما سبق ما كتبه "سلكيرك" البحَّار الأسكتلندي عن مغامرته الحقيقية المشابهة بما جاء في قصة (روبنسون كروزو) تلك المغامرة التي نُشرت أكثر من مرة قبل كتابة "ديفو" لروايته، وهناك من يشير إلى وجوه الشبه بين العملين، إلا أنه يُردف ذلك إلى بأنه لم يثبت أن "ديفو" قد استوحى كتاب ابن الطُّفيل، إذ ليس هناك أي دليل على أنه قد وقع في يده؛ فضلًا عن أن يكون قد قرأه . وهناك من يوافق على أنه لم يثبت تاريخيًّا أن "ديفو" قد اضطلع على (حي بن يقظان)، بَيدَ أنّه يُحتم على هذا أنه يكون قد قرأها وتأثر بها، أي: أنه يعتمد على البرهان النظري للواقعية . يقول الدكتور سعيد إبراهيم عبد الواحد في مقال له بعنوان "الترجمة إثراء للثقافات المختلفة" منشور في مجلة "ديوان العرب" الإلكترونية، بتاريخ الثامن من كانون الأول أي: ديسمبر سنة ألفين وخمس للميلاد، عن (حي بن يقظان): إنها من أعظم قصص العصور الوسطى ابتكارًا، وقد كان لهذه القصة الأثر الفعال في الآداب الأوربية بعد عصر النهضة، وذلك بعد أن ترجمت إلى اللغات الأجنبية المختلفة، وانتشرت طبعاتها في كل مكان، ومن بين المترجمين لهذه الرسالة "ليونج تييه" الفرنسي، ولعله هو أول مَن بحث علاقة قصة (حي بن يقظان) بقصة (روبنسون كروزو) المكتوبة عام ألف وسبعمائة وتسعة عشر في بريطانيا تحت عنوان: "مُغامرات عجيبة في قصة حياة روبنسون كروزو". ووقفت "جوتيا" عند حد افتراض اطلاع "ديفو" على قصة ابن طفيل، ويذهبُ في "دائرة المعارف الإسلامية"، إلى اعتبار أن "كروزو" تمثل نمطًا لرجل عملي دنيوي، في حين يمثل (حي بن يقظان) مثلًا للحياة التأملية التصوفية. ويأتي "إيرن سبيكر" في كتابة (تاريخ القصة الإنجليزية) الصادر في لندن سنة ألف وستمائة وثلاث وأربعين ميلادية، ليعد (حي بن يقظان) أحد المصادر المحتملة لقصة (روبنسون كروزو) وينضم "وليم كيري" و"ليفين أولو فسون" إلى

أولئك الذين جزموا باطلاع "ديفو" على قصة (حي بن يقظان)، في حين يقف "أوجستين سيرار" و"ديهارو ويختناش" دون الجزم. أما الكتَّاب العرب: عمر فروخ، ومحمد غلاب، وعلي المسراطي، وقدري طوقان، وكمال اليازجي، وأنطوان كرم، وإبراهيم مدكور، ومحمد نصر جمعة ، ولطفي عبد البديع، وسعيد عبد الفتاح عاشور، وكامل كيلاني؛ فقد ذهب جميعهم على تأكيد أثر قصة (حي بن يقظان) في قصة (روبنسون كروزو). وأما من افترض أيضًا اضطلاع "ديفو" على (حي بن يقظان) المستشرق "دويشون" كاتب مادة (حي بن يقظان) في الطبعة الجديدة من "دائرة المعارف الإسلامية"، إذ كتب: أنه من المحتمل أن تكون قصة (روبنسون كروزو) التي ظهر جزؤها الأول عام ألف وسبعمائة وتسعة عشر، مدينة بعض الشيء لترجمة "أوكلي" لقصة ابن طفيل . كذلك يقرر كامل كيلاني في مقدمة ترجمته المبسطة للناشئين لكتاب (روبنسون كروزو) أنه قد ظهر فيه أثر القصة العربية الخالدة (حي بن يقظان). أما الدكتور عمر فروخ فقد قال في كتابه (تاريخ الأدب العربي): لقد قلّد هذه القصة كتاب كثيرون أشهرهم وأقربهم السياسي القصصي الأدبي "دانيال ديفو" في قصته (روبنسون كروزو). كذلك كتب جميل صليبة، وكامل عياد، في مقدمة تحقيقهما لكتاب (الطفيل مالي). وتمتاز قصة ابن الطفيل عن قصة (روبنسون كروزو) من الناحية الفلسفية، كذلك تمتاز على غيرها من القصص الفلسفية الشرقية بالقرب من الحقيقة الواقعة، وبالوصف الطبيعي، والتفصيلات الدقيقة عن الحياة العملية، عَدَا رشاقة الأسلوب وسهولة العبارات وحسن الترتيب. وهي بهذه المزايا تعد في مقدمة الآثار العربية التي تستحق الخلود في تاريخ الفكر البشري . وبالمثل تُؤكد مادة (روبنسون كروزو) في موسوعة "سهلول الضوئية": أنّ رواية "ديفو" مُستوحاة من (حي بن يقظان)، إذ نَقْرَأُ فيه أنّ ذلك العمل قصة أوربية مأخوذة عن قصة (حي بن يقظان) لابن طفيل

الأندلسي، وأنه بعد ترجمة قصة (حي بن يقظان) بدأ الغربيون ينسجون على منوالها، ولعل أهم ما نسجوه قصة (روبنسون كروزو) للكاتب "دانيال ديفو". ورغم هذا؛ فإن كاتب المادة لا يُغْفِلُ الفُروقَ التي بين الروايتين، بل يرصدها معليًا في الوقت ذاته من شأنه الروايات العربية على نظيراتها الإنجليزية . وأما الدكتور محمد غريب هلال فيستبعد أن يكون لـ (حي بن يقظان) تأثير على قصة "ديفو" لأن التشابه بينهما ظاهري ضئيل كما يقول، علاوة على أن قصة (روبنسون كروزو) أصلًا تاريخيًّا يَتمثل في مغامرات البحار الأسكتلندي "سيلكرك" التي كتب عنها زميل له من البحارة عام ألف وسبعمائة وتسعة، أي: قبل ظهور "روبنسون كروزو" بعشر سنوات. ومع هذا نرى هلالًا في ذات الوقت يؤكد أن قصة الكاتب الإسباني (بلتا أسار جارتسيان ألكريتيكن) التي ظهر أنشاؤها ثلاثة اتباعًا في خمسينيات القرن السابع عشر. إذ من المؤكد في رأيي أن يكون "جراتسان" قد اطلع على قصة ابن الطفيل رغم أنها لم تكن قد ترجمت بعد إلى أية لغة أوربية؛ لأنّه من الصعوبة بمكان أن نرجع هذا التشابه بين العملين إلى مجرد المصادفة.

وهناك أيضًا مدني صالح الذي يَخْلُص في مقاله المنشور في العدد التاسع من مجلة "الأقلام العراقية"، إلى أنّ قصة (روبنسون كروزو) هي عنصر من عناصر "ديفو" الثقافية، وهو ما يؤيده فاروق سعد صاحب كتاب (حي بن يقظان) لابن الطفيل، وهذا يعني أن ذانك الكاتبين يريان أنه لا وجود لأي صلة أو عملية تأثير أو تأثر بين قصة ابن الطفيل، وقصة "دانيال ديفو". وبالمثل فإن كاتب مادة (روبنسون كروزو) في موسوعة "الإنكارتا" الإنجليزية طبعة ألفين وستة، لا يُشير لأي صلة بين العملين، مكتفيًا فقط بلفت النظر إلى ما قيل عن تأثر "ديفو" في كتاب (روبنسون كروزو) بما وقع ألكسندر "سيلكرك" بمغامرات حقيقية قرأها الجمهور على نطاق واسع قبل صدور (روبنسون كروزو). والشَّيء نفسه يردده

كاتب ذات المادة في النسخة الفرنسية من طبعة ألفين وتسعة، من "الإنكارتا" إذ يُرجع مصدر إلهامها إلى "ألكسندر سيلكرك" البحار الأسكتلندي الذي غرقت سفينته، واضطر للعيش وحيدًا فوق جزيرة من جزر أرخبيل "خوارفنديز" بشيلي، وعلى نفس الشاكلة تمضي "إنسيكلوبيديا بريتانيكا" الموسوعة البريطانية طبعة ألفين وثمانية في ترجمتها لـ"ديفو"، إذ كل ما تقوله في هذا الصدد هو أن المؤلف قد اعتمد جزئيًّا على مذكرات بعض الرحالة، والناجين من الغرق من أمثال "سيلكيرك" ثم لا شيء آخر. وتكتفي مادة "دانيال ديفو" في إ"نسيكلوبيديا يونيفرسالس" الموسوعة "اليونيفرسالية" بالقول بأنّ رِوَايةَ "دِيفُو" تَستلهِمُ مغامرات البحار الأسكتلندي "سيلكرك". وأما من وقفوا نفس الموقف الذي وقفه مدني صالح الدكتور بسام مرتضى، الذي قام بمقارنة بين العملين مبينًا أن التشابه بينهما يثير كثيرًا من الأسئلة، حول مدى تأثير الرواية الأولى في الثانية، وبخاصة أن (حي بن يقظان) تسبق (روبنسون كروزو) في الظهور بزمن جد طويل، فضلًا عن ترجمتها إلى بعض اللغات الأوربية قبل ظُهور رواية مغامرات (روبنسون كروزو) بزمن طويل . وقام دكتور مرتضى بتلخيص قصة (حي بن يقظان) الذي قذفت به الأمواج إلى جزيرة "الواق واق" الخيالية؛ فتحدث عما ذكره ابن طفيل من ولادة حي غير العادية، وكيف عاش في كنف غزالة أعانته على الحياة كما تعين الأم وليدها، وكيف وعى الفروق الجسدية التي تميزه عن حياة الغابة، وكيف أخذ يستر عورته وجسده بأوراق الأشجار؛ ثم كيف ماتت الغزالة، فحاول معرفة أسباب موتها لكن دون جدوى، وكيف دفنها كما تفعل الغربان ... إلى آخره. وانتقل البحث بعد ذلك إلى الحديث عن نمو مدارك ابن يقظان وحواسه، واكتشافه للنار، وفهمه لمسألة الجسد والروح، وكيف أخذ يدرك طبيعة الأجساد والأشياء من حوله، ويَعرف طبيعة الأفلاك والأجرام السماوية ليتوصل إلى أن هذا كله لا يصل إلا عن فاعل

مختار في غاية الكمال . وعندما بلغ ابن يقظان الخامسة والثلاثين، تحول حرصه من معرفة المصنوع إلى معرفة الصانع؛ فزهد في الطعام والشراب ولجأ إلى كوخ ينفق وقته في التأمل؛ رغبةً في الوصول إلى مرتبة مشاهدة الحق، إلى أن تم له ذلك ففني عن ذاته، وعن جميع الذوات، ولم يعد في الوجود إلا الحي القيوم، وبقي كذلك حتى بلغ الخمسين من عمره . ثم أوضح الباحث كيف تعلم (حي بن يقظان) لغة الكلام من رجل اسمه أسال قدِمَ إلى الجزيرة، وكيف اصطحبه أسال إلى مدينته لإقناع الناس بأهمية التأمل لحياتهم الروحية؛ لكن ذلك لم يجد معهم للنقص الذي كان في فِطرتهم، فرجعَا معًا إلى جزيرة "الواق واق" حيث أخذَا يعبدان الله بطريقتهما، حتى أتاهما اليقين . ثم ينتقل الباحث إلى تلخيص رواية (روبنسون كروزو) فيقول: إنّها تتحدث عن مغامرات (روبنسون كروزو) الذي ترك بيته وأهله، خلافًا لغربتهم، ورحل طالبًا الثروة والمغامرة؛ فصادف أثناء ترحاله مخاطر وأهوالًا كثيرة، منها غرق سفينته، ثم نجاته رغم هذا، ووصوله على ظهر موجة إلى اليابسة في جزيرة ليس فيها إلا الأدغال والوحوش؛ ليجد نفسه هناك وحيدًا دون رفيق من بني جنسه ، ثم محاولته التأقلم مع حياته الجديدة مستغلًّا كل ما حوله من موجودات في تدبير مأكله وصنع ملبسه. ثم تخليصه بعض العبيد من يد جماعة من آكلي لحوم البشر، وتعليمه العبد "فرايدي" اللغة الإنجليزية ومبادئ النصرانية.

٣-الصلة بين "حي ابن يقظان" و"روبنسون كروزو":

وكما نرى؛ فإن مادة "حي بن يقظان" في النسخة الإنجليزية من "الويكيبيديا" تُؤكِّد أنّ تأثيرَ رواية ابن طفيل على الآداب الأوربية تأثير واسع وعميق، وعند هذه النقطة نحب أن نتوقف بشيء من التفصيل إزاء قضية الصلة بين تلك الرواية، وبين رواية "ديفو" "روبنسون كروزو" ولكن علينا أولًا أن نتعرف إلى "روبنسون

كروزو" مثلما تعرفنا إلى حي بن يقظان، وسوف يكون اعتمادنا هذه المرة أيضًا على ما جاء في المادة الخاصة بتلك الرواية، في موسوعة "الويكيبيديا". فنقول: إن "روبنسون كروزو" قصة كتبها "دانيال ديفو" ونشرها لأول مرة عام ألف وسبعمائة وتسعة عشر، وهي تَحكي قصة شابٍ عاش في جزيرة من الجزر وحيدًا، لمدة طويلة دون أن يُقابل أحدًا من البشر، ثم بعد عدة سنوات التقى بأحد المتوحشين، فعلمه بعض ما وصل إليه الإنسان المتحضر من تقدم فكريٍ، واتخذه خادمًا له، ثم يعود في نهاية المطاف مصطحبًا خادمه إلى أوربا حيث العالم المتحضر. وتبدأ القصة بمغادرة "كروزو" إنجلترا في رحلةٍ بحرية في سبتمبر عام ألف وستمائةٍ وواحدٍ وخمسين، مخالفًا رغبات والديه ويسطو القراصنة على السفينة، ويُصبح "كروزو" عبدًا للمغاربة؛ إلا أنه يتمكن من الهرب في زورق، ويُصادف قائد سفينة برتغالية قادمة من الساحل الغربي لإفريقيا في طريقها إلى البرازيل، وهناك يُصبح "كروزو" مالكًا لإحدى المزارع، وينضَمُّ إلى بعثة لجلب العبيد من إفريقيا. وتغرق السفينة التي كان فيها وقت ذاك، في عاصفة تبعد أربعين ميلًا في البحر في مدخل نهر "أورينيكو" في الثلاثين من سبتمبر عام ألف وستمائة وتسعة وخمسين؛ فيموتُ جميع رفاقه ما عداه، ويتمكن من استخلاص الأسلحة والأدوات، والتجهيزات الأخرى التي كانت في السفينة قبل أن تتحطم تمامًا وتغوص في الماء، ثم يقوم ببناء صورٍ لمسكنه الذي أقامه في كهف، ويصنع أيضًا تقويمًا يتعرف به على مرور الزمن، من خلال علاماتٍ يرسمها على قطعة خشب، كما يقوم بالصيد وزراعة الذرة ويتعلم صناعة الفخار، وتربية الماعز، ويَقرأ الإنجيل، ويصبح متدينًا فجأة، ويشكر الله على مصيره فلا شيء قد فقد منه إلا المجتمع.

وفي يومٍ من الأيام يكتشف "كروزو" جماعة من آكلي لحوم البشر، يقومون بزيارة الجزيرة؛ ليقتلوا ويأكلوا أسراهم، وعندما استطاع سجين من السجناء الهروب انضم

إلى "كروزو" الذي سماه "فراي داي" باسم يوم الجمعة الذي قابله فيه؛ فصار يعلمه الإنجليزية حتى يستطيع التفاهم معه، كما نجح إلى تحويله إلى النصرانية. ثم تصل مجموعة جديدة من السكان الأصليين لصنع وليمة أخرى من اللحوم البشرية، ويستطيع جمعة و"كروزو" قتل معظمهم مع الاحتفاظ باثنين من أسراهم: أحدهما والد جمعة، والثاني أسباني. ويخبر هذا الأخير "كروزو" أن مجموعة من الأسبان الذين غرقوا موجودون على هذه الجزيرة، ويستطيع الثلاثة بمعاونة هؤلاء الإسبان بناء سفينة يبحرون بها إلى إسبانيا. بيد أن سفينة الإنجليزية تظهر، ويقع فيها تمرد يسيطر أصحابه على السفينة، ويتركون قائدهم على الجزيرة، إلا أن القائد يستطيع بمساعدة "كروزو" استرداد السفينة، ثم يسافر "كروزو" بعد ذلك إلى البرتغال للبحث عن قائده القديم، الذي يخبره بأن مزرعته البرازيلية قد جعلت منه رجلًا غنيًّا، ومن البُرتغال يُسافر "كروزو" برًّا إلى إنجلترا عن طريق أسبانيا أو فرنسا، حيث يتعرض هو ورفاقه في جبال "البرنيز" لهجوم من الذئاب، ويقرر "كروزو" بيع مزرعته، إذ إن عودته إلى البرازيل تستلزم تحوله إلى "الكاثوليكية" وهو ما لا يريده. ثم تزوج ليصبح أبًا لثلاثة أطفال، وعندما تموت زوجته يصبح أرمل، يعود إلى جزيرته في نهاية المطاف . هذا وقد سبق أن رأينا كيف تؤكد مادة حي بن يقظان في "الويكيبيديا" أن للرواية العربية تأثيرًا قويًّا على نظيرتها الإنجليزية، وهو رأي من الآراء المختلفة في هذه القضية، التي ينقسم مقارنو الأدب بشأنها، إذ هناك من يتجاهل تلك الصلة، ولا يتحدث عنها بتاتًا، بل لا يومئ إليها مجرد إيماء، وكأنها لم تكن، ولا يمكن أن تكون . وهناك من يؤكد أن "ديفو" إنما سرق ما كتبه "سل كرك" البحار الإسكتلندي عن مغامرته الحقيقة المشابهة لما جاء في قصة "روبنسون كروزو" تلك المغامرات التي نُشرت أكثر من مرة، قبل كتابة "ديفو" لروايته، وهناك من يشير إلى وجود الشبه بين العملين، إلا أنه يردف

ذلك بأنه لم يثبت أن "ديفو" قد استوحى كتاب ابن طفيل، إذ ليس هناك أي دليل على أنه وقع في يده فضلًا عن أن يكون قد قرأه . وهناك من يُوافق على أنه لم يثْبُت تاريخيًّا أن "ديفو" قد اطلع على حي بن يقظان ب يد أنه يحتم مع هذا أن يكون قد قرأها وتأثر بها، أي: أنه يعتمد على البرهان النظري ولا الواقعي . يقول الدكتور سعيد إبراهيم عبد الواحد، في مقال له بعنوان "الترجمة إثراء للثقافات المختلفة" منشور في (مجلة الديوان العربي) الضوئية عن "حي بن يقظان": "إنها من أعظم قصص العصور الوسطى ابتكارًا، وقد كان لهذه القصة الأثر الفعال في الآداب الأوربية بعد عصر النهضة، وذلك بعد أن ترجمة إلى لغاتٍ أجنبية مختلفة، وانتشرت طبعاتها في كل مكان، فقد ترجمة إلى العبرية سنة ألف ومائتين وثمانين، على يد اليهودي إسحاق بن اللطيف، ثم زاد عليها ميشل بن يوشع، الملقب بالشرنوبي بعض الحواشي والشروح، كان هذا عام ألف وثلاثمائة وتسعة وأربعين. وفي العام ألف وستمائة وواحد وسبعين ظهرت طبعة جديدة تحمل النص العربي للقصة، مع ترجمة لاتينية قام بها "إدوار بوكوك" وقد كانت مصدرًا لعدة ترجمات ظهرت بالإنجليزية فيما بعد، كما تنسب إلى "اسبينوزا" ترجمة لقصة "حي بن يقظان" من اللغة اللاتينية إلى اللغة الهولندية، ويذكر فاروق سعد في كتابه عن حي بن يقظان، أنّ "جُورج كيف" قد قدم في العام ألف وستمائة وأربعة وسبعين، ترجمة رائعة باللغة الإنجليزية عن النص اللاتيني المترجم عن العربي أصلًا، وبعدها بعدة سنوات أي في العام ألف وستمائة وستة وثمانين ظهرت ترجمة أخرى للقصة من اللاتينة إلى الإنجليزية، قام بها "جورج آشول". وفي عام ألف وسبعمائة وثمانية نُشرت ترجمة إنجليزية لقصة حي بن يقظان، أعدها "سيمن أوكلي" معتمدًا على النص العربي المحقق من "بوكوك" وتتميز ترجمة "أوكلي" بأنها كاملة. أما عن الترجمات الحديثة: فقد قام "برومل" بترجمة "حي بن يقظان" إلى

الإنجليزية، عام ألف وتسعمائة وأربعة. وعرفت اللغة الألمانية ترجمة لقصة ابن طفيل "حي بن يقظان" قام بها "بارت يوس" ونُشرت في "فرانك فورت" عام ألف وسبعمائة وستة وعشرين، كما أنّ هُناك تَرجمة أخرى لقصة لحي بن يقظان إلى اللغة الألمانية، قام بها "آي كورم" ونشرت في برلين عام ألف وسبعمائة وثلاثة وثمانين . وفي عام ألف وتسعمائة نشرت في سرقسطة الترجمة الأسبانية لقصة "حي بن يقظان"، وقام بها "بونص" وحديثًا في العام ألف وتسعمائة وسبعة وثلاثين ظهرت ترجمة أخرى إلى الأسبانية، قام بها "أنخر جنسلس بالانسيا" وترجمها اليوم "جوتيه" قصة حي بن يقظان إلى الفرنسية، وقد صدرت إحدى طبعات هذه الترجمة في بيروت عام ألف وتسعمائة وستة وثلاثين . ولعل "جوتيه" هو أول من بحث علاقة قصة "حي بن يقظان" بقصة "روبنسون كروزو" المكتوبة عام ألف وسبعمائة وتسعة عشر في بريطانيا تحت عنوان "مغامرات عجيبة في قصة حياة روبنسون وكروزو" ووقف "جوتيه" عند حد افتراض اطلاع "ديفو" على قصة ابن طفيل . وفي دائرة المعارف الإسلامية ذهب إلى اعتبار أن "كروزو" تمثل نمطًا للرجل العملي دنيويًّا في حين يمثل حي بن يقظان مثلًا للحياة التأملية التصوفية، ويأتي "آينس بيكر" في كتابه (تاريخ القصة الإنجليزية) الصادر في لندن سنة ألف وتسعمائة وثلاثٍ وأربعين، ليعتبر حي بن يقظان أحد المصادر المحتملة لقصة "روبنسون كروزو" وينضم "وليم كري" و"ليفج أولفسن" إلى أولئك الذين جزموا باطلاع "ديفو" على قصة حي بن يقظان، في حين يقف "أوجستين سيرارو" و"ديرهارو" و"يختو ناش" دون الجزم. أما الكتاب العرب عمر فاروق، ومحمد غلاب، وعلي المسراتي ، وخالد الطوقان، وكمال اليزجي، وأنطوان كرم، وإبراهيم مدكور، ومحمد لطفي جمعة، ولطفي عبد البديع، وسعيد عبد الفتاح عاشور، وكامل الكيلاني؛ فقد ذهب جميعهم على تأكيد أثر قصة حي بن يقظان في قصة

"روبنسون كروزو" . وممن افترض أيضًا اطلاع "ديفو" على "حي بن يقظان" المستشرق "جيشون" كاتب مادة حي بن يقظان في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية، إذ كتب: "أنه من المحتمل أن تكون قصة "روبنسون كروزو" التي ظهر جزؤها الأول عام ألف وسبعمائة وتسعة عشر، مدينة بعض الشيء لترجمة "أوكلي" لقصة ابن الطفيل . كذلك يقر كامل الكيلاني في مقدمة ترجمته المبسطة للناشئين لكتاب "روبنسون كروزو" أنه قد ظهر فيه أثر القصة العربية الخالدة حي بن يقظان، أما الدكتور عمر فروخ، فقال في كتابه (تاريخ الأدب العربي): "لقد قلد هذه القصة كتاب كثيرون أشهرهم، وأقربهم إلي السياسي القصصي الأدبي "دانيال ديفو" في قصته "روبنسون كروزو". كذلك كتب جميل صليبة، وكامل عياد، في مقدمة تحقيقهما لكتاب ابن الطفيل ما يلي: "وتمتاز قصة ابن الطفيل عن قصة "روبنسون كروزو" من الناحية الفلسفية، كذلك تمتاز على غيرها من القصص الفلسفية الشرقية، بالقرب من الحقيقة الواقعة، وبالوصف الطبيعي، وبالتفصيلات الدقيقة عن الحياة العملية، عدا رشاقة الأسلوب، وسهولة العبارات، وحسن الترتيب؛ وهي بهذه المزايا تعتبر في مقدمة الآثار العربية التي تستحق الخلود في تاريخ الفكر البشري . وبالمثل تؤكد مادة "روبنسون كروزو" في ذهلول الموسوعة العالمية المجانية الضوئية أن رواية "ديفو" مستوحاة من حي بن يقظان، إذ نقرأ فيها أن ذلك العمل هو قصة أوربية مأخوذة عن قصة حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي، وأنّه بعد ترجمة قصة حي بن يقظان بدأ الغربيون ينسجون على منوالها، ولعل أهم ما نسجوه قصة "روبنسون كروزو" للكاتب "دانيال ديفو" ورغم هذا؛ فإن كاتب المادة لا يغفل الفروق التي بين الروايتين بل يرصدها معليًا في الوقت ذاته من شأن الرواية العربية على نظيرتها الإنجليزية. وأما الدكتور محمد غنيمي هلال فيستبعد أن يكون لحي بن يقظان تأثير على

قصة "ديفو" لأن التشابه بينهما ظاهري ضئيل –كما يقول– علاوة على أن لقصة "روبنسون كروزو" أصلًا تاريخيًّا يتمثل في مغامرات البحار الإسكتلندي "سلك كيرك" التي كتب عنها زميل له من البحارة عام ألف وسبعمائة وتسعة أي: قبل ظهور "روبنسون كروزو" بعشر سنوات . ومع هذا نرى الدكتور هلال في ذات الوقت، يؤكد أن قصة الكاتب الأسباني "بلتسار جراتسيان الكريتي كوك" التي ظهرت أجزاؤها الثلاثة تباعًا في خمسينات القرن السابع عشر، والتي تشبه قصة ابن الطفيل، لا بد أن تكون قد تأثرت بهذه الأخيرة، إذ من المؤكد في رأيه أن يكون "جرسيان" قد اطلع على قصة ابن الطفيل رغم أنها لم تكن قد ترجمت بعد إلى أية لغة أوربية؛ لأنه من الصعوبة بمكان أن نرجع هذا التشابه بين العملين إلى مجرد المصادفة . وهناك أيضًا مدني صالح الذي يخلص في مقاله المنشور في العدد التاسع من مجلة الأقلام العراقية، إلى أن قصة "روبنسون كروزو" هي عنصر من عناصر البيئة "ديفو" الثقافية، وهو ما يؤيده فاروق سعد صاحب كتاب (حي بن يقظان لابن طفيل)، وهذا يعني أن ذانك الكاتبين يريان أنه لا وجود لأية صلة أو عملية تأثير وتأثر بين قصة ابن طفيل، وقصة دانيال ديفو. وبالمِثْل؛ فإن كاتب مادة "روبنسون كروزو" في موسوعة "الإنكارتا" الإنجليزية في طبعة سنة ألفين وتسع، لا يشير إلى أية صلة بين العملين مكتفيًا فقط بلفت النظر إلى ما قيل عن تأثر "ديفو" في كتابه "روبنسون كروزو" بما وقع لـ"ألكسندار سركيك" من مغامرات حقيقية قرأها الجمهور على نطاق واسع قبل الصدور "روبنسون كروزو". والشيء نفسه يُرَدِّده كاتب ذات المادة في النسخة الفرنسية من طبعة سنة ألفين وتسع من "الإنكارتا" إذ يرجع مصدر إلهامها إلى ما وقع "لألكسندر سركيك" البحار الإسكتلندي" الذي غرقت سفينته، واضطر للعيش وحيدًا فوق جزيرة من جزر أرخبيل "خوان فرناندس بشيري"، وعلى نفس الشاكلة تمضي "انسياكلو بيديا

بريتانيكا" في طبعات سنة ألف وثمانمائة في ترجمتها لـ"ديفو" إذ كل ما تقوله في هذا الصدد: هو أن المؤلف قد اعتمد جزئيًّا على مذكرات بعض الرحالة والناجين من الغرق من أمثال "سركيك" ثم لا شيء آخر. وتكتفي مادة "دانيال ديفو" في "انسيكو بديا يونيفرسليس" بالقول بأن رواية "ديفو" تستلهم مغامرات البحارة الإسكتلندي "سركيك". وممن وقفوا نفس الموقف الذي وقفه مدني صالح دكتور غسان مرتضى الذي قام بالمقارنة بين العملين، مبينًا أن التشابه بينهما يثير كثيرًا من الأسئلة حول مدى تأثير الرواية الأولى في الثانية، وبخاصة أن "حي بن يقظان" تسبق "روبنسون كروزو" في الظهور بزمن جد طويل، فضلًا عن ترجمتها إلى بعض اللغات الأوربية قبل ظهور رواية مغامرات "روبنسون كروزو". وقد قام دكتور مرتضى بتلخيص قصة "حي بن يقظان" الذي قذفت به الأمواج إلى جزيرة الواقواق الخيالية، فتحدث عما ذكره ابن الطفيل من ولادة حي غير العادية، وكيف عاش في كنف غزالة أعانته على الحياة كما تعين الأم وليدها، وكيف راعى الفروق الجسدية التي تميزه عن حيوانات الغابة، وكيف أخذ يستر عورته وجسده بأوراق الأشجار، ثم كيف ماتت الغزالة، فحاول معرفة سبب موتها لكن دون جدوى، وكيف دفنها كما تفعل الغربان إلى آخره . وانتقل الباحث بعد ذلك الحديث عن نمو مدارك ابن يقظان وحواسه، واكتشافه للنار، وفهمه لمسألة الجسد والروح، وكيف أخذ يدرك طبيعة الأجسام والأشياء من حوله، ويعرف طبيعة الأفلاك والأجرام السماوية، ليتوصل إلى أن هذا كله لا يصدر عن فاعل مختار في غاية الكمال، وعندما بلغ ابن يقظان الخامسة والثلاثين تحول حرصه من معرفة المصنوع إلى معرفة الصانع؛ فزهد في الطعام والشراب، ولجأ إلى كوخ ينفق وقته في التأمل رغبة في الوصول إلى مرتبة مشاهدة الحق، إلى أن تم له ذلك، ففني عن ذاته وعن جميع الذوات، ولم يعد في الوجود إلا الحي القيوم، وبقي كذلك حتى

بلغ الخمسين من عمره . ثم أوضح الباحث كيف تعلم حي بن يقظان لغة الكلام، من رجل اسمه "آسال" قدم إلى الجزيرة وكيف اصطحبه "آسال" إلى مدينته لإقناع الناس بأهمية التأمل إلى حياتهم الروحية؛ لكن ذلك لم يجد معهم للنقص الذي كان في فطرتهم؛ فرجعا معًا إلى جزيرة الواقواق حيث أخذا يعبدان الله بطريقتهما حتى أتاهما اليقين . ثم ينتقل الباحث إلى تلخيص رواية "روبنسون كروزو" فيقول: "إنها تتحدث عن مغامرات "روبنسون كروزو" الذي ترك بيته وأهله خلافًا لرغبتهم ورحل طالبًا الثروة والمغامرة؛ فصادف أثناء ترحاله مخاطر وأهوالًا كثيرًا، منها غرق سفينته، ثم نجاته رغم هذا، ووصوله على ظهر موجة إلى اليابسة في جزيرة ليس فيها إلا الأدغال والوحوش؛ ليجد نفسه هناك وحيدًا دون رفيقٍ من بني جنسه . ثم محاولته التأقلم مع حياته الجديدة مستغلًا كل ما حوله من موجوداتٍ في تدبير مأكله، وصنع ملبسه، ثم تخليصه بعض العبيد من يد جماعةٍ من آكلي لحوم البشر، وتعليمه العبد "فراي داي" اللغة الإنجليزية، ومبادئ النصرانية.

بعد ذلك يورد الباحث أوجه الاتفاق بين "حي بن يقظان" و"روبنسون كروزو" على النحو التالي:

- رمى القدر كلًا من حي و"روبنسون" في جزيرة لا حياة فيها لبني البشر.

-اضطر كلًا منهما أن يتأقلم مع حياته مستخدمًا أدواتٍ بسيطة؛ ليحمي نفسه.

- يلتقي حي بآسال، ويلتقي "روبنسون بفراي داي" فيعلم آسال حيًّا الكلام، ويُعلم "كروزو فراي داي" اللغة الإنجليزية ومبادئ النصرانية.

- حاول ابن طفيل أن يؤدي عبر "حي بن يقظان" رسالة مفادها أن الإنسان قادر بفضل حواسه وعقله، وحدثه الوصول إلى حقائق الكون كلها، ومعرفة الله بعقله المحض دون الاستعانة بالأديان، أما "دانيال ديفو" فأراد إيصال رسالة مختلفة بعض الشيء.

- تتفق القصتان في كثير من الجوانب الفنية، وفي تعليل الحدث، واعتماد الحوار الداخلي، وتصوير شخصية نامية متطورة.

ثم يسرد المحاضر أوجه التباين بين الروايتان، وهي كما يلي:

- وصل حي إلى الجزيرة وعمره لم يتجاوز اليوم الواحد، على حين وصل "كروز" إليها وهو شاب؛ فتأقلم الأول مع واقعه ذاتيًّا وبالفطرة، فيما استخدم "كروزو" خبراته السابقة في عملية التأقلم.

- حاول الكاتبان إبراز مقدرة الإنسان في التأقلم مع الطبيعة والحياة دون معين، لكن ابن طفيل كان هدفه رمزيًّا يتمثل في إبراز مقدرة الإنسان على التطور ماديًّا وروحيًّا دون شرائع مسبقة، أما ديفو فلم يكن هدفه سوى عرض جانب المغامرة، بما تنطوي عليه من تصعيدٍ قصصي وتشويق.

- لقاء حي بآسال كان لقاءً نديًّا بخلاف لقاء "روبنسون بفراي داي" الذي كان لقاء مصلحة ومنفعة.

- في رواية "حي بن يقظان" تكثر الأفكار الفلسفية، مما أضعف عنصر التشويق والإثارة، على عكس رواية "روبنسون كروزو" التي اتسمت بالإحكام الفني.

- الجانب المهم في شخصية حي هو التأمل، أما في شخصية "روبنسون" فهو الاكتشاف وبناء السلوك وفقًا لهذا الاكتشاف.

- تحدث ابن طفيل في الرواية بضمير الغائب، أما رواية "دانيال ديفو" فقد كُتبتْ بضمير المُتكلم مما أعطاها واقعية أكثر.

- رواية ابن طفيل رواية عقلية فكرية؛ ليس فيها وجود للعناصر الاجتماعية الأندلسية أو الأسبانية بخلاف رواية "ديفو" التي تمجد الحياة الاجتماعية، وصراع الإنسان عبر العمل للسيطرة على الطبيعة.

وهنا يطرح المحاضر السؤال التالي: هل أثرت رواية حي بن يقظان في "روبنسون كروزو"؟ ليجيب موضحًا أن الترجمتين اللاتينية والإنجليزية لرواية حي بن يقظان قد ظهرتا قبل إصدار "ديفو" روايته بأكثر من عشرين سنة، فمن المحتمل إذًا أن يكون "ديفو" قد اطلع على عمل ابن طفيل، وهو أمرٌ قد يؤكده اهتمام الأوربيين عمومًا بالثقافة العربية آنذاك. لكن المسألة ليست مسألة عواطف ورغبات، لذا لا بد –في رأيه– من التروي قبل إطلاق الأحكام، وإضافة إلى ذلك ثمة اعتقاد متداول بين بعض الباحثين، مؤداه أن "ديفو" قد اعتمد على روايته على حادثة حقيقية معروفة، وقعت لبحار إسكتلندي يدعى "ألكسندر سركيك" وهو ما يعني أن تأثر "ديفو" بالرواية العربية ضعيف جدًّا . وبِخُصوص اتهام "ديفو" بالسطو على ما كتبه "سلكيرك" البحار الإسكتلندي الذي وقع له مثل ما وقع لبطل "ديفود" ثم مقال كتبه الدكتور نجم عبد الكريم بعنوان "روبنسون كروزو سرقة أدبية في سياق المغامرة" نشرته صحيفة الشرق الأوسط العربية اللندنية، بتاريخ الإثنين الحادي عشر من أكتوبر عام ألفين وأربعة، جاء فيه: "ينسب الكثير من النقاد العرب أن رائعة الكاتب الإنجليزي "دانيال ديفو" مغامرة "روبنسون كروزو" إنما هي مأخوذة من تراثٍ عربي، واعتبروها عبارة عن سطوٍ أدبي على قصة ابن طفيل حي بن يقظان، وهناك من يقارن بين أحداثها وبين رحلات السندباد، وفيهم من نسب مغامرات "روبنسون كروزو" إلى تأثرها ببعض الرحالة من العرب. ومما لا شك فيه أن الأعمال الأدبية العظيمة لا تنبع من فراغ، ولا يلزم أن يخوض الكاتب تجربة أبطال روايته أو مسرحيته؛ فهناك دائمًا مؤثرات خارجية تدفع بالعمل الإبداعية إلى البروز؛ وفقًا لمدى قدرات وإبداعات ذلك الكاتب في تصويرها، لكن السيدة "سيلكيرك" التي التقيتها مصادفة في مناسبة اجتماعية بمدينة "مارلو" الإنجليزية تزعم بعكس ذلك تمامًا، فهي ترى أن "دانيال ديفو" مؤلف رواية مغامرات "روبنسون

كروزو" ما هو إلا كاتب أفاق، وسارق لأفكار غيره وكان جزاؤه أن مات فقيرًا عندما دفن في مقابر الفقراء. وتزعم السيدة "سيلكيرك" أنها تحتفظ بالأدلة أكيدة على حقيقة شخصية "روبنسون كروزو" ، لأنه جدها الرابع، واسمه ألكسندر سيلكيرك" والسيدة "سيلكيرك" هذه قد تجاوزت العقد الثامن من عمرها، لكنها تتمتع بذهنية متوقدة، وتتحدث بحماسٍ عن جدها الذي تعتبره الأب الحقيقي لرواية مغامرات "روبنسون كروزو" . عندما علمت بأنني من المهتمين بالكتابة والنقد، وجهت إلي سؤالًا عما هو مضمون رواية مغامرات "روبنسون كروزو"؟ فأجبتها أنها تروي عن ملاح بريطاني "روبنسون كروزو" تحطمت السفينة التي كان يعمل عليها في وسط المحيط الهادي، لكنه تمكن من التشبث بقطعة كبيرة من الخشب؛ ليتخذ منها طوافة تقيه الغرق، إلى أن تقذف به الأمواج على شواطئ جزيرة لم تطأها من قبل قدم إنسان؛ فيجد نفسه مضطرًا للتعايش مع الحياة الجديدة في تلك الجزيرة مع الحيوانات والطيور. وتمر الأيام ويجد "كروزو" نفسه ما إن يخرج من مغامرة مثيرة، حتى يدخل في مغامرة أكثر منها إثارة، وقد اتخذ لنفسه عددًا من الأصدقاء هم عبارة عن بغبغاء وقرد وعنزة، وقد صور "ديفو" حياة "كروزو" في تلك الجزيرة بشكل رائع وشائق؛ إلى أن تنقذه سفينة عابرة وتعيده إلى المدينة . بَعدَ أنْ لخّصتُ رِواية مغامرات "روبنسون كروزو" للسيدة "سيلكيرك" أضفت أن هذه الرواية ضربة رقمًا قياسيًّا في الترجمة عن اللغة الإنجليزية إلى اللغات الأخرى، فأنا مثلًا قرأتها باللغة بالعربية، كما قرأها الملايين من الناس بلغاتهم المختلفة؛ قالت السيدة "سيلكيرك": "ليس هذا فحسب، بل إنها تفوقت على أشهر كتابين ظهرا في العصر الذي كتبت فيه، وهما ألف ليلة ولية المقبلة إلينا منكم يا عرب، و" دنكي شوت" التي ترجمت إلى الإنجليزية عن الإسبانية، وهي "الاستفانس". فأجبتها: ولعلمك إنك لست الوحيدة ممن يزعمون بسطو "دانيال ديفو" على أحداث "روبنسون

كروزو" والبعض منهم لديه مقارنات يدلل بها على ذلك السطو؛ فما هو دليلك على أن مؤلف "روبنسون كروزو" قد سطا على تراث جدك "إلكسندر سيلكيرك" الذي لم يسمع به أحد من قبل، ظهر الانزعاج على ملامح السيدة، وقالت بعصبية: "جدي ولد في قرية "لافيو" الإسكتلندية عام ألف وستمائة وستة وسبعين، وهو يعرف "ديفو" وكانا يلتقيان في حانة واحدة في السنوات الأولى من القرن السابع عشر، وكان جميع الناس يعرفون تلك المغامرة، والتجربة التي مر بها جدي "سيلكيرك" وكان "ديفو" يسمعه منه لعدة أشهر، ويدون بعض أحداثها، ولكنه قد زيف الكثير مما جاء فيها من أحداث . ثم أخذت تروي قصة جدها الذي كان يعمل بحارًا في سفينة تجارية، كان ربانها شديد القسوة على بحارته، وقد بلغت قسوته أن قام بشنق ثلاثة من الرجال أمام زملائهم في وسط البحر، وألقى بجثثهم في المياه في أثناء رحلة لأمريكا الجنوبية، ولم يكن أمام البحارة، وهم يقاسون من عذابات الربان سوى التمرد والثورة، الذي دفعت بهم إلى الفتك بالربان ومساعديه، وفروا بالسفينة يجوبون بحار الجنوب، بينما كانت السفن البريطانية تطاردهم؛ فاتفق "ألكسندر سيلكيرك" -الجد الرابع للسيدة التي تروي الحكاية- مع زميل له على الفرار من السفينة، ونفذا خطتهما في جوف الليل، بعد أن قام بسرقة قارب صغير انطلقا به على غير اتجاه إلى أن قذفت بهما الأمواج على شواطئ جزيرة ذات طبيعة أخاذة مليئة بالطيور والحيوانات الأليفة؛ لأنها -أي: الحيوانات- كانت تقف أمامهما ، ولا تنطلق هاربة خائفة منهما، وهذا يدل على أن الجزيرة لم تطأها أقدام بشرية من قبل . وفي اليوم الثاني لوجودهما في الجزيرة مات زميل "ألسكندر سيلكيرك" لأنه تناول فراولة مسمومة، وظل "ألكسندر" يعيش في الجزيرة بمفرده، بعد أن هيأ لنفسه أجواءً تسمح له بالعيش فيها طيلة حياته، ومما عثر عليه في أوراقه عن وصفه تلك الجزيرة -كما تقول حفيدته- أنها جنة الله في الأرض؛

فكافة أنواع الفواكه والأطعمة موفورة فيها بكثرة، ومياه غدرانها عذبة كالشهد، وكُنت أصطاد فيها الغزلان والديكة البرية، وإذا رغبت في شرب شيء من اللبن؛ فما ألذه من ضرع "ماري" تلك العنزة التي كانت تتبعني أينما أذهب. وقد بنى "سيلكيرك" كوخًا من عيدان الخيزران وأوراق الشجر العريضة . وقد استرسلت السيدة في وصف تلك الجزيرة، على ضوء قراءتها للأوراق التي خلفها لها جدها، ومن أطرف ما قالت في هذا الصدد: "إن القطط والكلاب لم تكن بينها تلك العداوة التي نعرف عنها في معيشتها بين ظهرانينا؛ فالحيوانات في تلك الجزيرة الساحرة كانت تعيش في بسلام ومحبة" –والكلام ما زال للسيدة "سيلكيرك" . ومما ذكره جدي في أوراقه: "كنت أشاهد الحيوانات كيف تقضي وقتها باللعب معًا، فالفئران كانت تركب على ظهر القطط، والقطط تتسابق مع الكلاب، وكثيرًا ما كنت أجدها تنظف جلود بعضها البعض بألسنتها، ولم يحدث أن وجدت عداءً بين أي من الحيوانات التي تعيش على يابسة تلك الجزيرة" . ولكن الذي حفز "ألكسندر سيلكيرك" للعودة إلى المدينة، هو عثوره على مجرى للتبر، أخذ يجمع منه ما يستطيع جمعه، وعبأه بأكياسٍ جلدية صنعها من جلود الحيوانات، وحذر أنّ هَذه الثروة ستمكنه من العيش برغد في حالة عودته إلى العالم المتحضر؛ فصار يجمع الحطب والأخشاب بكميات كبيرة، ويضرم فيها النار ليتصاعد منها الدخان الذي يلفت إليه انتباه السفن البعيدة، وبعد محاولات متعددة أثمرت خطته أن سفينة "ديوك" قد اقتربت من تلك الجزيرة، وكان ذلك في عام ألف وستمائة وتسعة وخمسين. وما إن تمكن من الصعود إليها، حتى علم من البحارة أن الملكة "إليزابيس" قد أصدرت عفوًا شاملًا عن جميع البحارة الملاحقين من الإنجليز، احتفالًا بانتصار بريطانيا على الأسطول الأسباني؛ فوصل "الإكسندر سيلكيرك" حاملًا أكياس التبر التي كون منها ثروة طائلة، وقد وعدتني السيدة "سيلكيرك" بأن

تزودني بنسخ من الصور الأصلية بالأوراق التي كتبها جدها "الإكسندر سيلكيرك" الذي توفي عام ألف وسبعمائة وثلاثة وعشرين من دون أن يعرفه أحد؛ بينما دوت شهرت "دانيال ديفو" في كافة أنحاء العالم، وأصبح من أشهر المؤلفين في التاريخ بينما هو ليس سوى سارق لقصة جدي على –حد تعبير السيدة– التي راجعت معها تفصيل ما أوردته من معلومات في هذه المقالة؛ فوافقت على ما جاء فيها مع بعض التعديلات، التي أشارت إلي بها. ولكن أين هي الحقيقة؟ الحقيقة أن مغامرات "كروزو" صارت أكبر من كل الادعاءات". وتعقيبًا على ما قالته السيدة البريطانية نذكر نبذة عن جدها البعيد، وعن الجزيرة التي عاش فيها، على مدى عشرات الشهور وحيدًا دون أنيس من بني الإنسان؛ فنقول: "إن "إلكسندر سيلكيرك" ولد سنة ألف وستمائة وست وسبعين، ومات سنة ألف وسبعمائة وإحدى وعشرين، وهو رجل "إسكتلندي" عاش وحيدًا في جزيرة معزولة من جزر "شيلي" بأمريكا الجنوبية؛ فكانت له تجربة مثيرة، فعندما كان يعبر البحار الجنوبية عام ألف وسبعمائة وأربعة في حملة للقرصنة البحرية تشاجر مع قبطان السفينة. وبناء على طلبه ترك في إحدى جزر "خوان فورناندیز" على بعد حوالي ستمائة وأربعين كيلو متر غرب "تشيلي" فعاش هناك وحيدًا لمدة اثنين وخمسين شهرًا، حتى أنقذه القبطان "وولس روجرس" وقد سجل القُبطان تجارب "سيلكيرك" في كتابه (رحلة ممتعة حول العالم) كما وصفه القبطان "إدور كوك" في كتابيه (رحلة إلى البحار الجنوبية) و (حول العالم) . أما اسم رواية "ديفو" فمأخوذ من اسم إحدى الجزر التابعة لأرخبيل "خوان فرناندیز" الذي يتبع دولة "تشيلي" وهي "روبنسون كروزو" و"سانتكلارا" و"ريجندو سيلكيرك" ويعش نحو أربعمائة نسمة من المتحدثين بالأسبانية في جزيرة "كروزو" التي اشتهرت بوصفها الجزيرة التي عاش فيه المنبوذ "الإكسندر سيلكيرك" وحيدًا لأكثر من أربع سنوات؛ من عام ألف وسبعمائة

وأربعة، إلى عام ألف وسبعمائة وتسعة، وكانت الرحالة الأسباني "خوان فرناندیز" أول من اكتشف هذه الجزر عام ألف وخمسمائة وثلاثة وستين للميلاد . والآن وبعد أن ألممنا جيدًا بشكل القصتين ومضمونهما، واطلعنا على المقارنات المختلفة بينهما، وعرفنا الظروف التي صدرت فيها كل منهما، يمكننا أن نقول: "لا شك أنه كان لمغامرة "سيلكيرك" التي سجلها القبطان الذي أنقذه، ونشرها على الجمهور؛ فضل كبير على رواية "ديفو" إذ لا يعقل أن تنشر تلك المغامرات في العصر الذي يعيش فيه كاتب، وأديب، وسياسي مثله دون أن يدري ويتأثر بها في قصته. والإجماع منعقد على الاعتراف بهذا التأثير؛ لكن هل هذا يعني بالضرورة أنه لا مكان لأي تأثير من جانب حي بن يقظان في ذلك العمل؟ لقد تمت ترجمة الرواية الأخيرة الإنجليزية واللاتينية، قبل كتابة "ديفو" روايته بزمن غير قصير، وليس من المعقول أيضًا أن يجهل واحد مثله ذلك العمل الذي شد كبار عصره في أوربا كلها، وأعجبهم إعجابًا شديدًا، وكانت له تلك التأثيرات العميقة على عددٍ من مفكري القارة وفلاسفتها، مما سقنا بعضه فيما سبق . ومن هنا فإنني أقول: "إنه من المرجح أن يكون "ديفو" قد تأثر بها أيضًا كما تأثر بمغامرات "سليكيرك" تأثر بها على الأقل من حيث أنها شجعته أن يحول ما قرأه عن مغامرات البحار "الإسكتلندي" إلى عمل قصصي، وعلى تضمين قصته بعض القضايا الفكرية، مثلما اشتملت حي بن يقظان على مثل تلك القضايا، وإن اختلفت نوع قضاياه عن قضايا ابن الطفيل؛ نظرًا لاختلاف شخصيتيهما، وبيئتيهما، وثقافتيهما ووظيفتيهما، صحيح أن أحدًا من المقارنين لم يستطع حتى الآن –في حدود علمنا– أن يضع يده على شيء يثبت أن "ديفو" قد اطلع فعلًا على حي بن يقظان، بيد أن هذا كما قلت لا يستلزم بالضرورة أن لا يكون الاطلاع قد حدث، أو أن التأثر لم يقع إذ الأمران مختلفان تمامًا . وعلى هذا؛ فإنني لا أستطيع الجزم بتأثير القصة العربية

على نظيرتها الإنجليزية، كما صنع بعض المتحمسين من الباحثين العرب والأوربيين، بل أكتفي بالترجيح نظرًا لما ذكرته قبل قليل من الأسباب الحاملة على ذلك، بالإضافة إلى وجوه التشابه القوي بين العملين، وقرب الزمنين اللذين ظهرا فيهما، أما الجزم بنفي أي تأثير لرواية ابن الطفيل على "روبنسون كروزو" فأمر لا يمكن الإقدام عليه ولا حتى تقبله.

٢-التوابع والزوابع :

أ-التعريف برسالة التّوابع والزّوابع: رسالة التّوابع والزّوابع رسالة نثريّة خاطب فيها ابن شُهيد صديقه أبا بكر بن حزم وعرض فيها أروع نتاجه الشّعريّ والنّثريّ، وقرنه إلى نتاج كبار أدباء المشرق مبيناً تفرّده وتفوّقه، وعرّض بخصومه وحسّاده من معاصريه الأندلسيّين والقرطبيّين.

ب- والتّوابع والزّوابع قصّة رحلةٍ خياليّة إلى عالم الجنّ قام بها ابن شهيد مع تابع اسمه زهير بن نُمير ولقي شياطين المشرق وكتّابهم، وجرت بينه وبينهم مطارحات أدبيّة، ومناقشات لغوية تجلّت فيها آراء ابن شهيد النقديّة، وانتزع اعترافهم بتفوّقه وجودة أدبه، فضلاً عن الفكاهات والطّرف وروح الدّعابة التي سرت في هذه الرسالة.

ج-يحمله زهير على متن الجو إلى أرض الجن حيث التقى هناك بتوابع الشعراء المشهورين عتبة بن نوفل تابع امرئ القيس وعنترة بن العجلان تابع طرفة، وأبا الخطار تابع قيس بن الخطيم من الشعراء الجاهلين، ولقي عتّاب بن حبناء تابع

أبي تمام، وأبا الطبع تابع البحتري وحسين الدَّنان تابع أبي نواس، وحارثة ابن المغلس تابع المتنبي، كما التقى ببعض شياطين الكتاب،

د-وهي فكرة جديدة صاحبها أبو عامر؛ ذلك أنه لم يكن من الشائع أن هناك شياطين أو توابع للكتاب، التقى أبو عامر بشياطين صفوة كتاب العربية وهم عتبة بن أرقم تابع الجاحظ، وأبو هبيرة تابع عبد الحميد، وزبدة الحقب تابع بديع الزمان. ويخرج أبو عامر من هذه المقابلات مجازاً مشهوداً له بالفضل، كأن يقال له أحد الجن ما أنت إلا محسن على إساءة زمانك.

هـ-ولا يقف بابن شهيد في قصته عند مقابلة التوابع الذين مر ذكرهم، وإنما تلقي به طبيعة رحلته إلى مجلس أدب عقده أدباء الجن وهي جلسة نقدية يعرضون فيها لأقوال الشعراء ويستعرض ابن شهيد أمام منتدى الجن موهبته الشعرية والنقدية،

و-وتمضي قصة التوابع والزوابع، فيصل أبو عامر وتابعه زهير بن نمير إلى وادٍ آخر من أودية الجن وتلقي به المقادير إلى نادِ لحمير الجن وبغالها ويلتقي ببغلة أديبة ناقدة وبأوزة أديبة وتنتهي المحاورة بتغلبه على حيوان الجن الأدباء والنقاد وبذلك تنتهي قصة التوابع والزوابع أو بالأحرى تنتهي الجزء الذي وصل إلينا منها عن طريق كتاب الذخيرة.

ز- يبدأ ابن شهيد قصته قائلاً: "لله أبا بكر ظنٌ رميته فأصميت، وحدسٌ أمّلتّه فما أشويت ، فقلت كيف أوتى الحكم صبياً، وهزّ بجذع نخلة الكلام فالسّاقط عليه

رطباً جنيا، أمَا به شيطاناً يهديه، وشيصباناً يأتيه وأقسم أن له تابعة تنجده، وزابعة تؤيده، ليس هذا في قدرة الإنس، ولا هذا النّفس لهذه النفس. فأما وقد قلتها، أبا بكر، فأصخ أسمعك العجب العجاب" ويمضي يقص عليه نبأ تعلقه بأهل العلم والمطالعة حتى يصل إلى "فأرتج عليّ القول وأفحمت، فإذا أنا بفارس على باب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه، وقد اتكأ على رمحه وصاح بي وقلت له: بأبي أنت، من أنت؟ قال: أنا زهير بن نُمير من أشجع الجن، قلت: وما الذي حداك إلى التصور لي؟ فقال: صادفتَ قلباً إليك مقلوباً، وهوىً نحوك مجنوناً. وتحادثنا حيناً ثم قال: متى شئت استحضاري ؟فأنشد هذه الأبيات.

وإلى زهير الحُبَّ يا عَزَّ إنه إذا ذكرته الذاكرات أتاها

وأوثب الأدهم جدار الحائط ثم غاب عني. وكنت، أبا بكر، متى أُرتج عليَّ أو انقطع بي مسلك، أو خانني أسلوب، أنشد الأبيات فيمثلُ لي صاحبي فأسير إلى ما أرغب، وأدرك بقريحتي ما أطلب. وتأكدت صحبتنا، وجرت قصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها، لكني ذاكر بعضها".

نصّ قصة تابع امرئ القيس:

والنّص الذي بين يدينا ما هو إلاّ قصة جمالها في نسج أسلوبها، ودقّة ألفاظها، وبُعد مراميها الفكريّة والحضاريّة والفنيّة، وقد جعل ابن شهيد بدايتها: "تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء، وما كان يألفهم من التوابع والزّوابع، وقلت: هل حيلةٌ في لقاء مَن اتّفق منهم؟ قال: حتى أستأذن شيخنا،

وطار عنّي، ثمّ انصرف كلمح البصر، وقد أُذن له، فقال: حُلّ على متن الجواد، فصرنا عليه، وسار بنا كالطّائر، يجتابُ الجوّ فالجوّ، ويقطع الدّوّ فالدّو، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جوّاً لا كجوّنا. متفرعُ الشّجر عطرْ الزّهر، فقال لي: حللت أرض الجنّ أبا عامر، فبمن تريد أن نبدأ؟ قلت: الخطباء أولى بالتقديم لكني إلى الشعراء أشوق. قال: فمن تريد منهم؟ قلت: صاحب امرئ القيس. فأمال العنان إلى وادٍ ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره، فصاح: يا عتيبة بن نوفل بسقط اللّوى فحومل، ويوم دارة جلجل، إلاّ ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك وسمعت من الإنسيّ، وعرّفتنا كيف إجازتك له. فظهر لنا فارسٌ على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير، وحيا صاحبك! أهذا فتاهم؟ قلت: هو هذا، وأيّ حمرة يا عتيبة! فقال لي: أنشد، فقلت: السيّد أولى بالإنشاد، فتطامح طرفه، واهتزّ عطفه، وقبض عنان الشقراء، وضربها بالسوط، فسمت تحضر طولاً عنّا وكرّ، فاستقبلناه بالصعدة هازّاً لها، ثمّ ركزها، وجعل يُنشد:

سما لكَ شوقٌ بعدَ ما كانَ أقصرا

حتى أكملها، ثمّ قال لي: أنشدْ، فهممتُ بالحيصة، ثم اشتّدتْ قوى نفسي، وأنشدتُ:

شجتهُ مغانٍ من سُليمى وأدْؤُرُ

ومِنْ قُبَّةٍ لا يدركُ الطّرفُ رأسها تزلُّ بها ريحُ الصبّا، فتحدَّرُ

تكلّفْتُها، والليلُ قدْ جاشَ بحرهُ وقدْ جعلتْ أمواجُهُ تتكسَّرُ

ومِنْ تحت حضني أبيضٌ ذو سفاسقٍ وفي الكفّ من عسَالةِ الخط أسمَرُ

هما صاحباي من لَدُنْ كنتُ يافعاً مُقيلانِ من جِدّ الفتى حين يَعْثُر

فذا جَدْولٌ في الغِمدِ تُسقى به المُنى وذا غصُنٌ في الكفّ يجنى، فيثمرُ

فلمّا انتهيتُ تأمّلني عُتيبةُ، ثم قال: اذهب، فقد أجزْتُكَ، وغاب عنا".

وتنتهي القصة بتوضيح الهدف الذي من أجله نسج ابن شهيد قصته، وهو إثباته لذاته عن طريق نيل الإجازة من تابع امرئ القيس، هذه الإجازة تبرهن على إعجاب ابن شهيد بنفسه وتأتي لتأكيد صلة أدب المشرق بالمغرب، وتطلّع ابن شهيد إلى رئاسة الأدبين، فالهدف عند ابن شهيد في كتابته قصة التوابع والزوابع دافع شخصي نابع من إحساسه بأن معاصريه من الأدباء والنقاد لم يولوه حقه من التكريم، ولم ينزلوه المنزلة الأدبية التي رأى نفسه أهلاً لها. كما أنّ غايته إثبات مقدرته الأسلوبية النثرية والشعرية أمام المشارقة عن طريق مقابلة توابع الشعراء والكتّاب، وكسب اعترافهم بتفوقه.

رؤيا في قصة ابن شهيد :

١-لابن شهيد ثقافته العربية الواسعة بالشعر والنثر التي سخّرها لخدمة نسيج القصة، يدلل على أن هذه القصة عربية الشكل والمضمون

٢-لستناد شكل القصة إلى الأسطورة العربية القديمة بوجود توابع للشعراء في وادي عبقر، واستقائها فكرة رحلة الإسراء والمعراج في نسج أحداثها،

٣-جاءت القصة عربيّة المضمون لما حوته من قص وشعر مرتبط بحضارة الأندلس من جهة، وبالتراث المشرقي من جهة أخرى.

٤-هناك من يرى أن قصة التوابع والزوابع من حيث فكرتها مقتبسة من مقامة لبديع الزمان رغم قصرها، فبطل المقامة فقد إبله وخرج في طلبها، فرمته مقاديره في وادٍ أخضر وهناك التقى بشيخ جالس وبعد أن أنس إليه أخذ يروي شيئاً من أشعار العرب وبهذا يتبين أن ابن شهيد أخذ المقامة ونماها وتوسع في خيالاتها وأضاف إليها ما جعلها تخدم غرضه الخاص في كتابة قصته الطويلة. فالرحلة عربية الطابع والطبّع، وهي مستمدة من التاريخ العربي الإسلامي، لأنها تشبه رحلة الإسراء والمعراج في فكرة الرحلة، وأصالتها في المساجلات التي حصلت بين ابن شهيد وشعراء المشرق العربي ممّا يؤكّد انتماءها إلى التراث العربي الإسلامي، ، كما أن رسالة التوابع والزوابع بُنيت على أساس الأسطورة العربية القائلة بأنّ لكل شاعر تابعاً يلهمه الشعر، ويعينه في صناعته.

٥-وابن شهيد يمثّل شخصيّة البطل في هذه القصّة، كما يمثلها في أغلب قصصه، فهو البطل والرّاوي وتأتي شخصيّة زُهير لتكون ظلاً لشخصيّة ابن شهيد إذ ترافقه أينما توجّه، وحيثما حلّ وتُسهم في إغناء مقدّمة القصّة من خلال الحوار الذي دار بينهما وشخصية الشيخ هي الثالثة، وقد جاء بها ابن شهيد، لتكون حلقة وصل بين ابن شهيد وزهير، هذه الشخصية لم يتحدّث عن هيئتها وأوصافها، بل اكتفى بالإشارة إليها لأهميّتها في نيل تذكرة القبول بالمغادرة عن طريق الحوار الذي جعل

من هذا النيل حدثاً ثالثاً في القصّة عبر تسيير شخصية الشيخ له، وتأصيله بدعوة من زهير لابن شهيد لاستقلال جوادِ يرحلان عليه.

٧-والقصّة في هذا السياق تقدّم جانباً هامّاً من جوانب التربية التي يتمثّل بها ذلك العصر، فقد هذبت طباعَه أناقةُ القصور التي استظلّ في أفيائها، وخالط أصنافاً متعدّدة من أبناء المجتمع أيام النعيم والبؤس، فهو نقطة الدّائرة في عصره يرفع الأمراء قدره، ويخطب الوزراء صداقته، ويتبارى الشعراء والكتّاب بمساجلته، كلّ هذه الأمور ترتبط بهدوء حديثه، ووقار كلامه، وبروز ذاته. ولا عجبَ أن يظهر سلوكه في ألفاظه لأنّ الإنسان ابن البيئة، وقد كان للبيئة دور بارز في تكوين شخصيته، وصقل مواهبه. وهدوء النفس يرتبط بسياق القصة من خلال التركيب اللغوي الذي تتألف فيه العبارات محافظة على الوحدة العضويّة عن طريق العبارة الدّالة على السلوك تارة، ومن خلال اللفظة المنسجمة مع التعبير والملائمة للجو تارة أخرى.

الباب السادس

فن التوقيعات

في الأندلس

أولاً–مقدمة :

تمثل التوقعات جانبا مهماً من بلاغة الأدباء والخلفاء والولاة والحكام في مجال النثر والشعر فقد عرفها الأندلسيون، ونماذجها الأولى التي كانت في فترة الإمارة التي تمثل استقلال البلاد. وإرساء دعائمها وأنظمتها الإدارية ، وقد اعتمد عليها الحكام الأندلسيون في التعبير عن مواقفهم في كثير من الأشخاص، والقضايا كموقفهم من رجال الحاشية والمقربين ورجال الدولة كما اعتمد عليها الشعراء لإظهار براعتهم: والتوقعات تذييل يكتب أسفل الرسائل الواردة على ديوان الدولة. أو على ظهرها. وتعتبر ردا من الحاكم وتعقيبا يمليه على كتابه. أو يخطه بيده. ومن ثم فهو من إنشاء الحاكم نفسه. ونظرا لضيق وقته وكثرة مشاغله. لم يكن لديه متسع للإفاضة والإسهاب في الجواب. ولا سيما أمام كثرة الرسائل التي تحتاج إلى الرد السريع. مما جعل التوقيعات تتميز في الغالب بالإيجاز الشديد الموفي للمقصود. وهي ظاهرة شديدة الشبه بالبرقية من هذه الناحية.

ثانياً-أقسام التوقيعات :

تقسم التوقيعات باعتبار أسلوبها إلى قسمين :

أ-التوقيعات النثرية:

وهي توقيعات كتبت نثرا لأغراض متعددة سياسية أو اجتماعية أو إدارية،

١-كتوقيع أبي المطرف عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ) إلى ابنه المنذر بعد أن كتب إليه يسأله أن يأذن له في اعتلاء المنبر بالبلد الذي يليه له ليقيم الجمعة. ويخطب ليحيي رسوم سلفهم. فوقع على ظهر كتابه:" قالت الحكماء: لو كان الكلام من فضة، لكان الصمت من ذهب"

٢--وحين سأله بعض مواليه عملا لم يكن أهلا له. وقع على كتابه: "من لم يعرف وجه مطلبه كان الحرمان أولى به"

٣--وكتب أمية بن زيد عن عبد الرحمن الداخل كتابا إلى أحد عماله يستقصره فيما فرط من عمله. فأكثر وأطال الكتاب. فلما لاحظه الأمير أمر بقطعه. وكتب بخط يده:" إن يكن التقصير لك مقدما، فعد الاكتفاء أن يكون لك مؤخرا" .

٤-ولما رفع أحد المشتغلين بتثمير الخراج للأمير عبد الرحمن بن الحكم أن القنطرة التي بناها جده على نهر قرطبة، لو رسم على الدواب والأحمال التي تعبر عليها رسماً لاجتمع من ذلك مال عظيم، فوقع الأمير عبد الرحمن على كتابه مستنكرا مثل هذا الاقتراح، لما فيه من إثقال على الرعية، موجها اهتمامه إلى

مجالات الإصلاح الأخرى التي تورث الذكر الحسن، مثل بناء المساجد وإصلاحها، وحمله نفقة إصلاح المسجد المجاور له، ونص توقيعه كما يلي: "نحن أحوج إلى أن أفعال البر أمثال هذه القنطرة، لا أن تمحو ما خلده آباؤنا باختراع هذا المكس القبيح، فتكون عائدته قليلة لنا، وتبقى تبعته وذكرى السوء علينا، وهلا كنت نبهتنا إلى إصلاح المسجد المجاور لك الذي قد تداعى جداره واختل سقفه، وفصل المطر مقبل، لكن يأبى الله أن تكون هذه المكرمة في صحيفتك، وقد جعلنا عقوبتك بأن تصلح المسجد المذكور من مالك على رغم أنفك، فيكون ما تنفق فيه منك، وأجره لنا إن شاء الله" . غير أن التوقيعين الأخيرين يطولان عن الحجم المألوف، وللأمير محمد بدوره توقيعات تظهر فيها مواقفه من رجال الدولة،

٥-فقد بعث له أحدهم – وهو وليد بن غانم – رسالة يشكره فيها على فضله عليه، ويستقل ما ولاه من خدمته، ويجدد طاعته، : "عظمت نعمة الخليفة سيدي أيده الله عن الشكر، وجلت أياديه عن النشر، فمتى رمت ذكر أدنى شكره، وحمد أيسر ما اشتمل علي من فضله، تكاء دنيا لشكر، وأعجزني الحمد، لكنني غير مؤتل في ذلك عن الاستفراغ في القول، والاجتهاد في العمل، إذ لم أرهما يدوران إلا على نعمة سلفت، ويقتصران إلا على زيادة انتظرت، وأنا بينهما مخيم، وعليهما معول، والله الناقل لعباده بطاعتهم له وشكرهم إياه، من دار الشقاء إلى دار السعادة، ومن نصب العاجل، إلى راحة الآجل، والسلام" .

٦-فوقع الأمير في كتابه: "إن الله شاكر يحب الشاكرين، ولا يضيع أجر المحسنين، وقد ناديت فأسمعت، ولكل أجل كتاب والسلام" .

ويقوم هذا التوقيع على التمثيل بالآيات القرآنية، بطريقة تبرز حسن استغلاله واستفادته من ثقافته ومحفوظه.

٧-وحين وصله كتاب القاضي محمد بن زياد يذكر فيه تداعي جانب من المسجد الجامع بقرطبة، ويحثه على إصلاحه، وقع على كتابه:

"إننا لسنا ننفق نفقة أحب إلينا ولا أثر عندنا من الإنفاق فيما ذكرت به وخصصت عليه، ونحن آمرون بالنظر في بنيان المسجد الجامع المكرم، والاجتهاد في رم شعثه والأخذ بالجد في ذلك وتعجيله، مع الإبلاغ في تقويته وتحصينه، ونوكل كفاتنا بعمله والقيام عليه، ونأمرهم ألا يرفعوا أيديهم عنه غبنا أو حضرنا، حتى يبلغ تمامه بحول الله وقوته، ونحن نحملك مع ذلك التفقد لذلك والمعونة عليه وإحسان النظر في معانيه لتشركنا في عظيم ثواب الله والمعونة عليه، فانهض بذلك راشدا إن شاء الله تعالى" . وإذا كان هذا التوقيع يطول بدوره، فإنه بذلك يؤكد ما أشرنا إليه من قبل من جنوح الموقعين إلى الإطالة أحيانا رغبة في التفصيل والتوضيح ، ومن قبيل مواقف الحكام من الحاشية، من خلال التوقيعات، موقفهم من بعض الوشاة، ومن نماذج ذلك أنه حين أنعم الأمير عبد الرحمن بن الحكم على زرياب بثلاثة آلاف دينار بعد أن أطربه، فنشرها هذا على جواريه وولده، كتب أحد السعاة إليه يخبره أن المغني لم يعظم في عينيه ذلك المال، وأنه أعطاه في ساعة واحدة، ٨-فوقع الأمير على كتابه: "تبهت على كل شيء كنا نحتاج التنبيه عليه، وإنما رزقه نطق على لسانك، وقد رأينا أنه لم يفعل ذلك إلا حيينا لأهل داره، ويغمرهم بنعمنا، وقد شكرناه، وأمرنا له بمثل المال المتقدم، ليمسكه لنفسه، فإن

كان عندك في حقه مضرة أخرى، فارفعها إلينا" . وعبر الحكام الأندلسيون في توقيعاتهم عن مواقفهم من الثوار، فيما دار بين الطرفين من مراسلات، وما ورد في شأنهم من رسائل بعض العمال والقادة،

٩-ومن ذلك ما أملاه عبد الرحمن الداخل على بعض كتابه إلى سليمان بن الأعرابي وكان خارجا عليه. "أما بعد: فدعني من معاريض المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدن يدا على الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لا أقين بنابها على رضف المعصية نكالا بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد".

١٠-وكتب محمد بن عبد الرحمن المعروف بالشيخ الذي كان ممتنعا بحصن (لقنت) إلى عبد الرحمن الثالث كتابا فيه ما أوجب أن أجابه عبد الرحمن بالتوقيع التالي: "ولما رأيناك قد تذرعت بإظهار اتقاء الله، رأينا أن نعرض أولا ما لا بد لك منه آخرا، وليس من أطاع بالمقال، كمن أطاع بعد الفعال" . فبادر الثائر إلى قرطبة مستسلما، مما يبرز بلاغة التوقيع وعميق تأثيره في نفس الثائر.

ب-التوقيعات الشعرية :

وإلى جانب التوقيعات النثرية، هناك توقيعات شعرية، ومنها ما يتصل بمواقف الحكام من رجال الدولة، مثلما وقع به الأمير عبد الله إلى الوزراء في قصة موسى بن حدير، وعيسى بن أحمد بن أبي عبدة، حين أراد كل منهما أن يكون مجلسه فوق الآخر. خلافا لما كان والده الأمير محمد قد رتبه من رفع الموالي الشاميين على البلديين،

١-وقد وقع على الكتاب الذي رفع إليه بهذا الشأن:

موالي قريش من قريش فقدموا

موالي قريش لا موالي معتب

إذا كان مولانا "يساويه عندنا

سواه فمولانا كآخر أجنبي.

ثالثاً-مادة التوقيعات :

أما مادة التوقيعات التي استقى منها الحكام والأدباء توقيعاتهم ، فهي:

١-القرآن الكريم

٢- والحكم والأمثال

٣-وثقافة الموقعين في معظم الأحيان

وقد برهن الموقعون في توقيعاتهم على براعتهم ومهارتهم، وحذقهم في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني .

الباب السابع
أدب الوصايا
في الأندلس

أ-مقدمة :

الوصايا أدب نثري وشعري يحمل الجمال الفني المؤثر، الصادر من أديب يوجز تجربته وثمرة علمه بقطعة نثرية على شك لوصية يدعمه بالآيات القرآنية، والحكم البليغة ، وفن الوصية يأتي غالبًا في حالة خلوص ذهن، وقرب فراق في حالة يصعب على الإنسان إلا أن يحكي ما استقر في نفسه من تجارب الحياة؛ فتكون الوصية بذلك موجزة صادقة ، وأدب الوصايا فن طريف، يجمع فيه الموصي خلاصة تجاربه، ويجسد فيه عمق معرفته والوصايا تراث يسمو في مضمونه وصياغته كالوصايا من والد لولده، ولا تقف فوائد المضمون عند ذلك الولد، ولذلك حملت الوصايا الأندلسية مضامين مهمة، تنبعث منها عاطفة جياشة، عبر عنها الأدباء بلغة فصيحة.....

ب أهمية الوصايا :

١-تتجلى أهمية الوصايا من خلال احتفاء التشريع الإسلامي بها، يدل على ذلك ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة من نماذج للوصايا المفيدة، مثل وصية لقمان لابنه.....

٢-.أدب الوصايا باب من أبواب التربية، بل هي فن من ضروریاته

ج-أشهر الوصايا وأصحابها :

لم يهتم الأدباء الأندلسيون بالوصايا كثيراً على طريقة أسلافهم ؛ وإنما أكثر الخطباء من وصايا التمسك بعرى الدين، والزهد بمغريات الدنيا ، والدفاع عن أرض أندلس من الاستعادةل

١-ولعل أول الوصايا الزهدية في الأندلس ما وَعَظ به القاضي الزاهدُ منذر بن سعيد الخليفة عبد الرحمن الناصر لما رآه منه من انهماك في العناية بمدينة الزهراء، وانصراف عن الاهتمام بصلاة الجمعة، فخطب في الناس بحضور الخليفة، وعرّض به، فذكره بالموت ودعاه إلى الزهد في عرض الدنيا الزائل، حتى بكى الناس وبكى الخليفة، وندم على ما سلف له من فرطه، واستعاذ بالله من سخطه، وقد بدأ الواعظ خطبته بقوله تعالى: أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون... فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى، وهي دار القرار، ومكان الجزاء...."وهي وصية على شكل خطبة

٢-ومن الوعاظ الزهاد ابن الطلاع، إذ كانت له موعظة مع المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية، فقد لقيه المعتمد يوماً، فنزل له عن دابته، ووعظه ابن الطلاع، ووبخه على حياته اللاهية العابثة من خلال الوصية .

٣-وممن عرف بمثل هذه الوصايا والعظات الدينية الزاهد أبو بكر الطُرطُوشي، إذ دخل يوماً على الأفضل بن أمير الجيوش، فوعظه حتى أبكاه، وما جاء في موعظته: "إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَنْ كان

قبلك، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله – عز وجل – سائلك عن النقير والقمطير والفتيل، واعلم أن الله –عز وجل – أتى سليمان بن داود مَلَكَ الدنيا بحذافيرها، فسخر له الإنس والجن والشياطين والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء، حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له عزَ مَنْ قال " هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب "، فما عُد ذلك نعمة كما عددتموها، ولا سحبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله عز وجل، فقال: " هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر " فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم ". وتعد هذه الموعظة التي جاءت على شكل وصية من أجمل المواعظ الدينية وأبرعها، لما امتازت به من بساطة التعبير وصدقه، وبعد عن التكليف، وقدرة على استمالة الأمير وإقناعه، وقد تسربلت تلك الموعظة بعاطفة دينية صادقة كان لها تأثير في نفس الأمير دفعته إلى البكاء فَرَقا، لأن " لأكثر الوصايا والخطب الدينية والمواعظ أثراً في النفس، وبلوغاً إلى القلب، وتأثيراً في السامع ما كان عن مطابقة حقيقية بين القول والفعل، وما كان صدى مستقيماً لسلوك مستقيم، وخلق قويم" ولقد سلك الزاهد في موعظته سبيل الترسل الذي اعتمد العبارة الطويلة مبتعداً عن العبارة القصيرة المسجوعة إلا ما ورد منها عفو الخاطر دون قصد مثل: "فافتح الباب، وسهل الحجاب". وكان تأثرها بمسلك القرآن الكريم في الوعظ وبأسلوبه واضحاً جلياً، فقد اقتبس من آي الذكر الحكيم على سبيل الاستشهاد، ليكون بينه على صدق ما يقول، وصحة ما يذهب إليه، الأمر الذي منح الموعظة جواً من المهابة والجلال الديني، وأورث " الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع ". ويمكن أن

يعد ما ورد في كتاب " سراج الملوك " للمؤلف نفسه من وصايا على شكل مواعظ زهدية في باب مقامات الوعاظ والزهاد عند الأمراء والسلاطين، ومن قوله: " يا أيها الرجل... أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبار الهارب، فخيرها يسير، وعيشها قصير، وإقبالها خديعة، وإدبارها فجيعة، ولذاتها فانية، وتبعاتها باقية، فاغتنم غفوة الزمان، وانتهز فرصة الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزود من يومك لغدك ولا تنافس أهل الدنيا في خفض عيشهم ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم، وسوء منقلبهم"

٤-وصى الواعظ الخطيب أبو الحسن بن شريح أمير المسلمين علي بن تاشفين ونصحه موصيا إياه باتباع العدل وحسن اختيار الولاة الصالحين " اقتداء بالخلفاء الراشدين، وامتثالاً لفعل الأئمة الصالحين الذين قدروا هذه الدنيا حق قدرها، وتحققوا مكرها وغدرها، فعدلوا إلى الدار الآخرة، وابتاعوا ما يدوم ويبقى بما يبيد ويفنى، لم يشغلهم عن القيام بأمر الله إلْف ولا سكن، ولا ثبطهم عن جهاد عدوه دار ولا وطن" . وتدل وصايا ومواعظ الزهاد الدينية عند الأمراء بجلاء على إيمانهم برسالتهم في الصلاح البشري وعلى شجاعتهم وقدرتهم على الجهر بكلمة الحق، واستهانتهم بالدنيا وزهدهم في حب العيش فيها، فكان الموصي والواعظ الزاهد ابن الطلاع " قوّالا بالحق، وإن أوذي فيه، لا تأخذه في الله لومة لائم". فجمعت مواعظهم بذلك بين الصدق والشجاعة بعيداً عن التكلف والمصانعة.

الباب الثامن
السيرة النبوية
في التراث الأندلسي

أ-مقدمة :

برع الأدباء في الأندلس بدراسة هذا الجانب كما برعوا في جوانب أخرى كثيرة حيث اعتنوا بالتاريخ وما يتصل به من معارف وبالفقه والحديث ، وهذا الاهتمام بالسيرة النبوية كان في منتصف القرن الثاني الهجري من خلال موسى بن عقبة الأسدي في كتابه " المغازي " ، ثم في القرن الثالث الهجري تطور الأندلسيون في فهم دلالة السيرة النبوية حيث اتسم بقدر أكبر بكثير من الدقة والمنهجية العلمية وإرهاف الحس النقدي وخاصة بعد أن نشأ جيل جديد من تلاميذ بقي بن مخلد و محمد بن وضاح ؛ وقد استغرق العمل في السيرة النبوية المشرفة القرن الرابع كله وهي الحقبة التي بلغت فيها الثقافة الأندلسية أوج نضجها واكتمالها على أنه كان الاهتمام الخصب المتنوع من جانب الأندلسيين بالسيرة النبوية الشريفة قد اتخذ منذ القرن الخامس مسالك ثلاثة بينهما بعض التداخل والتشابك وإن أمكن التمييز بين بعضها البعض:

ب-مسالك السيرة النبوية : سلكت التآليف في السيرة النبوية مسالك عدة :

أولاً: المسلك العلمي النقدي:

وهو الذي كان ثمرة تلك الجهود العلمية التي استغرقت القرن الرابع وقد أنتج لنا هذا الاتجاه بعض التآليف الأندلسية التي يتمثل فيها ما أدركته ثقافة هذه البلاد الإسلامية وقد اتسم هذا الاتجاه بـ :

١- الالتزام بالمنهج العلمي الدقيق.

٢- اتضحت فيه معالم الشخصية الإسلامية.

٣- أصبحت مصدر لا غنى عنه للدارسين ليس في الأندلس وحدها بل في كل بلاد الشرق ونضرب مثالاً بعالمين جليلين هما: (ابن حزم. وابن عبد البر) . وابن حزم له رسالة طويلة في السيرة النبوية بعنوان " جوامع السيرة وقد كانت السيرة التي كتبها خاضعة لمنهج النقد في الحديث فجاءت مجردة من الأشعار والقصص محررة في ضوء المذهب الظاهري. وأما العالم الثاني اختص بالسيرة النبوية بمؤلف اسمه " الدرر في اختصار المغازي والسير " وقد ذكر أنه اعتمد على كتب من سبقوه مثل موسى بن عقبة ويظهر أن تشابها بين ابن حزم وابن عبد البر في كتابة السيرة فكلاهما عالم ملتزم بالمنهج النقدي الصارم لأصحاب الحديث ولابد من التعريج على أول نموذج قدمته الثقافة الأندلسية لكتابة السيرة النبوية هو الفقيه عبد الملك بن حبيب الألبيري حيث قدم الصورة المثلى للرجل المثقف في حياة الأندلس . وقد أفرد كتاباً لمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده .

ثانياً: المسلك الوجداني:

وهو فن الرسائل إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر الأندلسيون من الكتابة فيه وهي تلك الرسائل التي يوجهها مؤلفها إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتغاء البركة أو مناجاة خالصة يبثها الكاتب إيماناً نابضاً بالحرارة ومتحدثاً عما يضيق به من مشكلاته وأزماته. وكان يلتمس في مثل هذه المناجاة ضرباً من السلو والراحة وهو يتخيل نفسه متوجهاً بالخطاب إلى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم. ومولد هذا الفن ارتبط ببداية ضعف الدولة الإسلامية في الأندلس فقد شعر الأندلسيون وهم يتأملون وطأة الأزمة على وطنهم بحاجتهم إلى مزيد من الإيمان يستلهمونه من هذه المخاطبات النبوية. وأقدم هذه الرسائل يرجع إلى أواخر عصر الطوائف الذي تمزقت فيه الدولة الإسلامية وأحدقت بها الأخطار. و أهم من ألف في ذلك: أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي الذي يذكر أنه كتب رسالة إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وبعث معها بشعر-محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي الشقوري كتب رسالة وفيها شعر-محمد بن محمد المرسي المعرف بابن الجنان -لسان الدين الخطيب كتب رسالتين فيها يبسط أحوال الأندلس وما وقع من أحداث فيها ويعتذر للرسول عليه السلام فيها بأن تلك الأهوال التي تعانيها بلاده هي التي تمنع أن تشد إلى قبره الرحال.

ج-ومن نماذج فن الرسائل إلى الرسول محمد -صل الله عليه وسلم:

١- رسالة لسان الدين الخطيب: حيث يقول فيها: (السلام عليك يا محمد السلام عليك يا أحمد السلام عليك يا أبا القاسم سلام من يمد إليك يد الغريق ويرجو

الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق وينقطع أسفاً ويتنفس صعداً كلما ازدلف إليك فريق وعمرت نحوك الطريق ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجف ريق.....) . ثم يقول: (فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك فهي أفضل المنى وتوسل لي إلى مولى فضيلتك وتقبل وسيلتك في النقلة من هنا إلى هنا)؛ ثم يختم الرسالة بقوله: (كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى اللائذ بحرمك الأمنع الأوقى المتأخر جسماً المتقدم فلان " مخاطباً الله " والسلام عليك يا رسول تسليماً كثيراً ورحمة الله وبركاته) ، فالرسالة تصور ذلك الجو النفسي القلق الذي كان يسود الأندلس حينما ألحت عليها المحن وأصبح مصيرها معلقاً بخيط واهن يوشك أن ينبت .

٢-رسالة لسان الدين الخطيب:

الذي يقول فيها: (إلى رسول الحق إلى كافة الخلق وغمام الرحمة الصادق البرق الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق خاتم الأنبياء وأمام ملائكة السماء ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء شفيع أرباب الذنوب وطيب أدواء القلوب والوسيلة إلى علّام الغيوب نبي الهدى.....) ؛ ثم قال: (كتبت إليك يا رسول الله والدمع ماح وخيل الوجد ذات جماح عند الشوق الشوق يزداد كلما نقص الصبر.....) في هذه الرسالة بسط فيها لسان الدين أحوال الأندلس ويتحدث في تفصيل عن آخر ما وقع بها من أحداث ويعتذر للرسول عليه السلام بأن تلك الأهوال التي تعانيها بلاده هي التي تمنع أن تشد إلى قبره الرحال. ونلاحظ في الرسالة الصنعة الأدبية واللغوية حيث يختار العبارات المؤثرة والإيقاع القوي لعله يصل به إلى مراده وألفاظها مختارة ومؤنقة.

د-رسائل المدائح النبوية:

لقد كان الإنتاج النثري للمؤلفين الأندلسيين في المناقب النبوية على أعظم جانب من الجودة والوفرة فإن إنتاجهم الشعري لم يقصر عن ذلك . ولعل أول من استوقفتهم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم هو الأديب المؤلف عبد الملك بن حبيب الألبيري الذي مر معنا وقد علمنا أنه أول مؤلف اختص بالسيرة النبوية بالكتابة . ولابن حبيب هذا قصيدة جميلة وصف بها مشاعره وهو واقف على على المشاهد النبوية أثناء رحلته للحج فيقول: (البحر: الكامل)

لله در عصابة صاحبتها نحو المدينة تقطع الفلوات

حتى أتينا القبر قبر محمد خص الإله محمداً بصلاة

خير البرية والنبي المصطفى هادي الورى لطرائق الحسنات

لما وقفت بقربه لسلامه جادت دموعي واكف بالعبرات

ورأيت حجرته وموضعه الذي قد كان يدعو فيه للخلوات

سقياً لتلك معاهداً شاهدتها وشهدتها بالخطو واللحظات

وبطيبة طابوا ونالوا رحمة مقنى الكتاب ومحكم الآيات

وبقبر حمزة والصحابة حوله فاضت دموع العين منهمرات

صلى الإله على النبي المصطفى هادي البرية كاشف الغمرات

وعلى ضجيعته السلام مردداً ما لاح نور الحق في الظلمات

فنلاحظ في هذه الأبيات العاطفة الجياشة التي ملأت قلبه حتى جعلت العبرات دائماً تسكب والدموع منهمرة وكيف أنه استعمل الألفاظ الملائمة المناسبة لهذا الموقف وهذا وإن دل فإنه يدل على قدرة وثقافة هذا الشاعر ؛ وهذا الرعيني الغرناطي يقول وهو يسكب العبرات في روضة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هذه روضة الرسول فدعني أبذل الدمع في الصعيد السعيد

لا تلمني على انسكاب دموعي إنما صنتها لهذا الصعيد

وممن عني بالمديح النبوي لسان الدين الخطيب حيث بلغت عدد مدائحه النبوية اثنتا عشرة قصيدة حيث يقول:

وأنت ملاذ الخلق حياً وميتاً وأكرمهم ذاتاً وأعظمهم مجداً

فلولاك ما بان الضلال من الهدى ولا امتاز في الأرض المكبّ من الأهدى ، فقد مدح النبي عليه السلام بأنه ملاذ الخلق وأكرمهم وأعظمهم في حياته وبعدها ولولاه لما استبان الضلال من الهدى . فهناك قصيدة نظمها الأديب الأندلسي ابن المناصف القرطبي في / ٧٠٠ / بيتاً من الرجز بعنوان " الدرة السنية في المعالم السنية " ، وقد جمع أحد أدباء المغرب المتأخرين وهو الحسن بن عبد الرحمن بن عذرة الأنصاري كتاباً ضخماً في المدائح النبوية في أكثر من خمسة وعشرين مجلداً بعنوان: " منتهى السول في مدح الرسول " ، وهناك ديوان للمديح للشاعر الأندلسي محمد بن جابر الهواري الوادي وهو بعنوان " العقدين في مدح سيد

الكونين " وله قصيدة معارضة لقصيدة البردة حيث توخى فيها أن يشمل كل بيت لوناً من ألوان البديع وقد انتشرت هذه القصيدة انتشاراً كبيراً وكانت موضعاً لشروح وتعليقات كثيرة.

الباب التاسع
فن المناظرات
في الأدب الأندلسي

أ- توضيح:

المناظرة: فنٌّ أدبيٌّ نشأ في المشرق وبلغ أوج ازدهاره في الأندلس، وهو يقوم على المجادلة والمحاورة بين شخصين، يدلي كلّ واحدٍ بحججه وبراهينه ليثبت تفوقه على الآخر، معتمداً في ذلك على رصيده الثقافي ومخزونه التراثي من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة والتراث الأدبيّ القديم. يتناول هذا البحث " المناظرات في الأدب الأندلسي" وهو فن أدبي نثري برع فيه عدد من كتاب الأندلس على درجةٍ من التفاوت والتأنّق. وابتكروا موضوعات جديدة مستحدثة على أيديهم لم تكن معروفة لدى كتّاب المشرق. وقد تعددت موضوعات المناظرة في الأدب الأندلسي. وعبرت عن جوانب البيئة الأندلسية الجديدة التي نشأ فيها هذا الأدب.. ووظّفها الأدباء أحياناً في المدح، وفي التعبير عن شغفهم بالطبيعة، وفي وصف جوانب الحضارة، وكانت أحياناً أخرى مظهراً من مظاهر التفنن في القول وإبراز المقدرة على التأليف والابتكار. وقد اخترت منها المناظرات ذات الطابع الفكري. لأنها

عبرت عن الجانب الفكري والعلمي في الأندلس، كما أكّدت نزعة الأندلسيين إلى التمسك بأصالتهم، والدعوة إلى الاهتمام بتاريخهم وثقافتهم في وقت كانت فيه الحوادث الخطيرة والهزات العنيفة تهدد هذه الشخصية بالزّوال.

وهي فن يهدف الكاتب فيه إلى إظهار مقدرته البيانية وبراعته الأسلوبية، وهي نوعان خيالية وغير خيالية.

ب –نماذج من المناظرات :

١–فمن المناظرات الخيالية مناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر، وقد رمز بالسيف لرجال الجيش، وبالقلم لأرباب الفكر، ثم أجرى الحوار بينهما، وانتهى فيه إلى ضرورة العدل في المعاملة بين الطائفتين.

٢–ومن المناظرات غير الخيالية ما تجري فيه المناظرة بين مدن الأندلس ومدن المغرب كمفاخرات مالقة وسلا للسان الدين بن الخطيب، وكانت مالقة أيام الدولة الإسلامية من أعظم الثغور الأندلسية، أما سلا فهي مدينة رومانية قديمة في أقصى المغرب، وقد فضل الكاتب مالقة.

الباب العاشر

المواعظ التقوية

في الأدب الأندلسي

أ-مقدمة :

تعد المواعظ الدينية والوصايا الخلقية لوناً من ألوان الخطب، ترتبط معها بأقوى رابطة، لأن الموعظة هي الهدف الأول للخطيب، وقد اتخذها الوعاظ الزهاد مادة أساسية لخطبهم، لا سيما حين يلقونها على جمع من الناس أو عندما يتوجهون بها إلى وعظ الخلفاء والأمراء والوقوف بين أيديهم لإلقاء نصائحهم ووصاياهم في الترغيب والترهيب، وكان الناس على استعداد لتقبل تلك المواعظ الزهدية، لما تثيره في نفوسهم من أحاسيس ومشاعر، ولما عُرف عن أصحابها من ورع وتقى وصلاح . وكانت تلك المواعظ تشتمل على عظات دينية وخلقية، ونصائح ووصايا قوامها التوجه إلى الله والدعوة إليه، والتزهيد في الدنيا والغض من شأنها، والترغيب في الآخرة والعمل بها والدعوة إلى العدل والتحذير من الظلم . والحقيقة أن هذا اللون من المواعظ الدينية قد عرف في الأندلس على يد جماعة من الزهاد

الوعاظ الذين تعدّت رسالتهم حدود المسجد إلى التجوال في بلاد الأندلس للتذكير والوعظ.

ب-أشهر أصحاب المواعظ:

١-ولعل أول المواعظ الزهدية في الأندلس ما وَعَظ به القاضي الزاهدُ منذر بن سعيد الخليفة عبد الرحمن الناصر لما رآه منه من انهماك في العناية بمدينة الزهراء، وانصراف عن الاهتمام بصلاة الجمعة، فخطب في الناس بحضور الخليفة، وعرّض به، فذكره بالموت ودعاه إلى الزهد في عرض الدنيا الزائل، حتى بكى الناس وبكى الخليفة، وندم على ما سلف له من فرطه، واستعاذ بالله من سخطه، وقد بدأ الواعظ خطبته بقوله تعالى: أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون... فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى، وهي دار القرار، ومكان الجزاء...."وهي وصية على شكل خطبة

٢-ومن الوعاظ الزهاد ابن الطلاع، إذ كانت له موعظة مع المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية، فقد لقيه المعتمد يوماً، فنزل له عن دابته، ووعظه ابن الطلاع، ووبخه على حياته اللاهية العابثة من خلال الوصية .

٣-وممن عرف بمثل هذه العظات الدينية الزاهد أبو بكر الطُرطُوشي ، إذ دخل يوماً على الأفضل بن أمير الجيوش، فوعظه حتى أبكاه، وما جاء في موعظته: "إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَنْ كان قبلك، وهو خارج

عن يدك بمثل ما صار إليك، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة، فإن الله – عز وجل – سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، واعلم أن الله –عز وجل – أتى سليمان بن داود مَلَكَ الدنيا بحذافيرها، فسخر له الإنس والجن والشياطين والوحش والبهائم، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء، حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له عزَ مَنْ قال " هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب "، فما عُد ذلك نعمة كما عددتموها، ولا سحبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله عز وجل، فقال: " هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر " فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم " . وتعد هذه الموعظ من أجمل المواعظ الدينية وأبرعها، لما امتازت به من بساطة التعبير وصدقه، وبعد عن التكليف، وقدرة على استمالة الأمير وإقناعه، وقد تسربلت تلك الموعظة بعاطفة دينية صادقة كان لها تأثير في نفس الأمير دفعته إلى البكاء فَرَقا، لأن " لأكثر المواعظ أثراً في النفس، وبلوغاً إلى القلب، وتأثيراً في السامع ما كان عن مطابقة حقيقية بين القول والفعل، وما كان صدى مستقيماً لسلوك مستقيم، وخلق قويم" ولقد سلك الواعظ الزاهد في موعظته سبيل العبارة الطويلة مبتعداً عن العبارة القصيرة المسجوعة إلا ما ورد منها عفو الخاطر دون قصد مثل: "فافتح الباب، وسهل الحجاب" . وكان تأثرها بمسلك القرآن الكريم في الوعظ وبأسلوبه واضحاً جلياً، فقد اقتبس من آي الذكر الحكيم على سبيل الاستشهاد، ليكون بينه على صدق ما يقول، وصحة ما يذهب إليه، الأمر الذي منح الموعظة جواً من المهابة والجلال الديني، وأورث " الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع " . ويمكن أن يعد ما ورد في كتاب " سراج الملوك " للمؤلف نفسه من مواعظ زهدية في باب

مقامات الوعاظ والزهاد عند الأمراء والسلاطين ، ومن قوله: " يا أيها الرجل... أما ترى الدنيا تقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبار الهارب، فخيرها يسير، وعيشها قصير، وإقبالها خديعة، وإدبارها فجيعة، ولذاتها فانية، وتبعاتها باقية، فاغتنم غفوة الزمان، وانتهز فرصة الإمكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزود من يومك لغدك ولا تنافس أهل الدنيا في خفض عيشهم ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم، وسوء منقلبهم"

٤-ووعظ الخطيب أبو الحسن بن شريح أمير المسلمين على بن تاشفين ونصحه باتباع العدل وحسن اختيار الولاة الصالحين " اقتداء بالخلفاء الراشدين، وامتثالاً لفعل الأئمة الصالحين الذين قدروا هذه الدنيا حق قدرها، وتحققوا مكرها وغدرها، فعدلوا إلى الدار الآخرة، وابتاعوا ما يدوم ويبقى بما يبيد ويفنى، لم يشغلهم عن القيام بأمر الله إلْف ولا سكن، ولا ثبطهم عن جهاد عدوه دار ولا وطن" . وتدل مواعظ الزهاد الدينية عند الأمراء بجلاء على إيمانهم برسالتهم في الصلاح البشري وعلى شجاعتهم وقدرتهم على الجهر بكلمة الحق، واستهانتهم بالدنيا وزهدهم في حب العيش فيها، فكان للواعظ الزاهد ابن الطلاع " أقوّالا بالحق، وإن أوذي فيه، لا تأخذه في الله لومة لائم". فجمعت مواعظهم بذلك بين الصدق والشجاعة بعيداً عن التكلف والمصانعة.

الباب الحادي عشر
أبرز أعلام كتّاب النثر
في الأندلس

١-ابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ): وكان شاعراً وكاتباً، وله في النثر كتاب «العقد الفريد» الذي قسمه إلى خمسة وعشرين باباً، وجعل لكل بابين منها اسم جوهرة لتقابلهما في العقد، وهو يجمع بين المختارات الشعرية والنثرية، ولأن أكثر مواده تتصل بالمشرق، فقد قال الصاحب بن عباد لما اطلع عليه: بضاعتنا ردت إلينا.

٢-ابن شهيد (ت٤٢٦هـ): كان شاعراً وكاتباً. من آثاره النثرية «رسالته في الحلواء» ورسالته المسماة «حانوت عطار» و«رسالة التوابع والزوابع» وهي قصة خيالية يحكي فيها رحلته إلى عالم الجن واتصاله بشياطين الشعراء والكتاب، وقد عرض من خلالها آراءه في اللغة والأدب.

٣-ابن حزم (ت٤٣٨هـ): اشتهر شاعراً وكاتباً، ومؤلفاته النثرية كثيرة تتناول شتى الموضوعات في الفقه والأدب والأنساب والتاريخ.

٤-ابن سيْدَة (ت٤٥٨هـ): وكان أعلم الناس بغريب اللغة من أشهر مؤلفاته كتابي «المخصص» و«شرح مشكل أبيات المتنبي». و ابن عبدالبر وكان من أهل

قرطبة، واشتهر برسائله التي يغلب عليها الاتجاه السياسي والحديث عن الصداقة والمودة، وقد وصف الشطرنج.

٥-ابن زيدون (٤٦٣هـ): وقد افتنَّ برسائله، فكتب الهزلية على لسان ولادة إلى ابن عبدوس يسخر منه كما سخر الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير من الكاتب أحمد بن عبد الوهاب وقد ساق ابن زيدون تهكمه في سيول من الأشعار والأمثال وأسماء الرجال، وحرص على تناسق الإيقاع، فكان السجع نائباً عن الأوزان والقوافي. كما كتب الرسالة الجدية يستعطف فيها قلب ابن جهور فيخرجه من السجن، وقد بدأها بالنثر وختمها بالشعر، وهي من حيث القيمة الفنية لا تقل عن الهزلية.

٦-تمام بن غالب بن عمر (ت٤٣٦هـ): وهو من أعلام النحويين واللغويين ويعرف بابن التياني نسبة إلى التين وبيعه. من كتبه «الموعب في اللغة» و«تلقيح العين» وقد وجه صاحب دانية ، والجزائر الشرقية (جزائل البليار) الأمير أبو الجيش مجاهد العامري (ت٤٣٦هـ)، وكان من أهل الأدب، إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية، وأبو غالب ساكن بها، ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة كتاب ألفه تمام لأبي الجيش مجاهد فلم يفعل ورد الدنانير وقال: «والله لو بذل لي ملء الدنيا ما فعلت ولا استجزت الكذب، لأني لم أجمعه له خاصة لكن لكل طالب».

٧-أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى (ت٤٧٦هـ): المعروف بالأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا، والشنتمري نسبة إلى شنتمرية من بلاد الأندلس وله شروح على الكتب المشرقية، وعلى دواوين بعض الشعراء الجاهليين.

٨-ومن كتّاب القرن الخامس الهجري ابن الدبّاغ الذي نشأ في سرقسطة وترعرع فيها، وقد أعلى المقتدر بن هود منزلته لفصاحته وبلاغته. له رسائل يغلب عليها الاتجاه الاجتماعي، وقد جاءت معظم رسائله مملوءة بالشكوى من الزمان.

٩-ابن طاهر (ت٥٠٧هـ): وقد تناول كثيراً من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه بحكم إمارته لمرسية، فكتب في الجهاد والصراع مع الصليبيين وفي موضوعات الرسائل الإخوانية، وفي الفكاهة والهزل.

١٠-ابن أبي الخصال الغافقي (استشهد سنة ٥٤٠هـ): وقد شغل مناصب إدارية في دولة المرابطين، وألف في المقامات، وشارك في نمط من الرسائل عرفت بالزرزوريات.

١١-ابن بسام صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، وضمنه محاسن أدباء الأندلس من بُعيد الدولة المروانية إلى عصره.

١٢-محمد بن عبد الغفور الكلاعي (ت٥٤٥هـ) وقد ألف كتاب «إحكام صنعة الكلام» في النثر وفنونه.

١٣-ابن طفيل (ت٥٨١هـ) وكان طبيباً وأديباً وفيلسوفاً اشتهر بقصته «حي بن يقظان» التي تعد من أعظم الأعمال القصصية الفكرية في العصور الوسطى، والهدف منها الوصول إلى معرفة الخالق والإيمان به.

١٤-أبو الحجاج بن محمد البلوي (ت٦٠٤هـ) ويعرف بابن الشيخ، وكان موفور الحظ من علم اللغة والأدب، مشاركاً في النقد والأصول. من مؤلفاته كتاب «ألف

باء» وهو أشبه بموسوعة جامعة لفنون الثقافة العامة صنّفه ليتأدب به ابنه عبد الرحيم (ت٦٣٨هـ).

١٥-ابن جبير (ت٦١٤هـ) أبو الحسين محمد، وكان شاعراً وكاتباً له الرحلة المشهورة وقد دونها بأسلوب رصين جزل الألفاظ سهل التراكيب وهي من رحلاته المشرقية الثلاث.

١٦-محيي الدين بن عربي صاحب المؤلفات الصوفية ومنها «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم». وله «الوصايا».

١٧-ابن الأبّار: ومؤلفاته تربو على خمسة وأربعين كتاباً وصلنا منها «تحفة القادم» و«التكملة» لصلة ابن بشكوال، و«المعجم» و«درر السمط في خبر السبط».

١٨-حازم القرطاجي: وكان شاعراً ونحوياً وناقداً، وأشهر كتبه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» الذي يمثل قمة من قمم النقد الأدبي.

١٩-أبو الطيب (أبو البقاء) الرندي: وكان أديباً شاعراً ناقداً. من كتبه «الوافي في نظم القوافي» وهو من كتب النقد والبلاغة.

٢٠-ابن سعيد (ت٦٨٥هـ): الذي نظم الشعر وارتحل ودوّن مذكراته، وترك آثار أدبية تدل على ثراء في الموهبة، واستقامة في التعبير. ومن كتبه المطبوعة «المُغرب في حلى المَغرب» و«القدح المُعَلَّى». و«رايات المبرّزين وغايات

المميّزين»، و«عنوان المُرقصات والمُطربات»، و«الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة»، وله «رسالة في فضل الأندلس».

٢١-ابن الجيّاب (ت٧٤٩هـ) وقد تدرج في الخدمة في دواوين بني الأحمر حتى صار رئيس كتاب الأندلس، وتخرج على يديه عدد من أهل العلم والأدب.

٢٢-منهم لسان الدين بن الخطيب: من آثاره «الإحاطة في أخبار غرناطة» و«اللمحة البدرية في الدولة النصرية» و«نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» و«خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» و«معيار الاختيار في أحوال المعاهد والديار»، وله رسائل كثيرة جمع قسماً منها في كتابه «ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب».

وهاكم تفصيلاً في سيرة:

١-ابن زيدون:

هو، أحمد بن عبد الله ... بن زيدون المخزومي القرطبي، ولد بقرطبة عام ٣٩٤ للهجرة، وتوفي بإشبيلية عام ٤٦٣ ٢، وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة٣، ولما قامت الفتن في أواخر حكم الأمويين أسهم فيها، إذ كان هواه مع الثائرين، ومن أجل ذلك قربه أبو الحزم جهور أمير قرطبة، إلا أن هذه المكانة لم تدم له طويلًا إذ نسبت إليه مؤامرة على السلطان، وتصادف أن كان هناك أديبة شاعرة يتعلق بها ابن زيدون، وهي ولادة بنت المستكفي، ولهما مطارحات ومجالس محفوظة٤، وكان ينافسه فيها ابن عبدوس، فاصطدم كل منهما بالآخر، وكان ابن

زيدون كاتبًا، فكتب رسالة هزلية طويلة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس، يزعم فيها أنه أرسل لها سيدة تمدحه لها، وتحاول أن تعقد الصلة بينه وبينها، فنهرتها نهرًا شديدًا، ولم تكتف بذلك، بل كتبت له هذه الرسالة، وكلها تهكم به وسخرية، ولم يرد ابن عبدوس على خصمه برسالة أخرى، بل دبر له مؤامرة واسعة النطاق، جعلت أبا الحزم بن جهور يحبسه، وقد كتب إليه ابن زيدون من السجن برسالة طويلة، تسمى الرسالة الجدية يستعطفه بها، وكذلك استعطفه برسائل، وقصائد أخرى إلا أنه لم يرق له، وأخيرًا يعفو عنه مستجيبًا فيه لشفاعة ابن أبي الوليد، ولما ولي بعده سنة ٤٣٥ اتخذه سفيرًا بينه وبين رؤساء الأندلس ، غير أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينهما، ففر ابن زيدون على وجهه إلى إشبيلية عام ٤٤١ ١، فلقيه أميرها المعتضد لقاء حسنًا، واصطنعه لنفسه، كما اصطنعه ابنه المعتمد من بعده، واستطاع المعتمد بفضل مشورته أن يستولي على قرطبة، وما زال يرعاه خير رعاية، حتى إذا كان عام ٤٦٣ أرسله إلى إشبيلية في مهمة إلا أن القدر عاجله، ويقولون: إن أهل قرطبة حزنوا لوفاته حزنًا شديدًا . وهذا كله يرينا أن حياة ابن زيدون، كانت مليئة بمتاعب ومصاعب جمة، ومع ذلك فهو يوضع على رأس شعراء، وكتاب عصر ملوك الطوائف، يقول صاحب الذخيرة فيه: "كان أبو الوليد زيدون غاية منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بني مخزوم، أحد من جر الأيام جرًا، وفات الأنام طرًا، وصرف السلطان نفعًا وضرًا، ووسع البيان نظمًا ونثرًا، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزهر اقترانه، وحظ من النثر غريب المباني شعري الألفاظ والمعاني" ، ويقول أيضًا: "فأما سعة ذرعه وتدفق طبعه، وغزارة بيانه، ورقة حاشية لسانه، فالصبح الذي لا ينكر ولا يرد، والرمل الذي لا يحصر ولا يعد" ، ولعل أطرف ما ترك ابن زيدون من آثاره الكتابية، هو الرسالة الجدية ثم الرسالة الهزلية؛ أما الرسالة

الجدية التي كتبها في الاستعطاف، فهي تبدأ على هذا النمط: وأحس الجماد استحمادي إليك، فلا غرو قد يغص بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفى به، ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته، والحين قد يسبق جهد الحريص :

كل المصائب قد تمر على الفتى ... وتهون غير شماتة الحساد

وإني لأتجلد وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع، فأقول: هل أنا إلا يد أدماها سوارها ، وجبين عضه إكليله ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله، وسمهري عرضه على النار مثقفه، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا ... فليقس أحيانًا على من يرحم

هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع ، ولن يريبني من سيدي أن أبطأ سيبه، أو تأخر –غير ضنين– غناؤه، فأبطأ الدلاء فيضًا أملؤها ، وأثقل السحائب مشيًا أحفلها ، وأنفع الحيا ما صادف جدبًا، وألذ الشراب ما أصاب غليلًا، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب". وأكبر الظن أن خصائص ابن زيدون اتضحت لنا الآن، فهو يعني عناية شديدة بحل الشعر في كلامه، كما يعني بالأمثال وحشدها، حتى لتغدو رسالته في حاجة إلى الشرح؛ لأن كثيرًا من عباراتها أمثال مرموزة، وأبيات منثورة وشطور من الشعر مرصوفة، وهذا نفسه هو الذي يجعلنا نقول: إن ذوق ابن زيدون في نثره كان قريبًا من ذوق أصحاب التصنع في المشرق، وحقًا هو لم يستخدم البديع، ولا ما يتصل به من تعقيد بعض زخارفه، ولكنه استخدم لغة بهمة بعض الشيء، وإذا استمررنا معه في الرسالة، وجدناه يلجأ إلى شيء أكثر صعوبة، وهو ذكر كثير من وقائع القرآن الكر يم، وحوادث الإسلام الحنيف. وراع هذا الجانب في الرسالة القدماء؛ لأنهم عثروا به على مادة غنية للشرح والتفسير، واستمع إليه يصور

لابن جهور، أنه لم يرتكب جرمًا كبيرًا، فيستهدف لما مضى من جنايات وأحدث في الديانات، وعلى هذا النحو: "قد بلغ السيل الزبى ، ونالني ما حسبي به وكفى، وما أراني إلا أمرت بالسجود لآدم، فأبيت واستكبرت، وقال لي نوح: اركب معنا، فقلت: "سآوي إلى جبل يعصمني من الماء"، وأمرت ببناء الصرح لعلي طلع إلى إله موسى، وعكفت على العجل، واعتديت في السبت، وتعاطيت فعقرت، وشربت من النهر الذي ابتلي به جيوش طالوت، وقدت الفيل لأبرهة، وعاهدت قريشا على ما في الصحيفة، وتأولت في بيعة العقبة، ونفرت إلى العير ببدر، وانخذلت بثلث الناس يوم أحد، وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة، وجئت بالإفك على عائشة الصديقية، وأنفت من إمارة أسامة، وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فلتة".

وترك ابن زيدون هنا السجع؛ لأنه لا يستقيم، وما يريد أن يروى من هذه الأحداث، وهي أحداث لا يفهمها إلا من قرأ سير الأنبياء، والسيرة النبوية خاصة، ولا بد له بعد ذلك أن يقرأ شيئًا عن حياة المسلمين بعد الإسلام، ونحن نراه في الرسالة ينتقل بعد ذلك إلى تملق ابن جهور مع شيء من الزهور والخيلاء، وقد امتد به نفسه طويلًا، فأكثر من الحكم والأمثال، كما أكثر من تضمين الشعر وجله في نثره، وكذلك أكثر من اقتباس آي الذكر الحكيم، وما من ريب في أن هذه صورة أخرى من صور التصنع، وهي صورة لا تبلغ ما بلغه المذهب في المشرق من تعقيد عند أبي العلاء وأصحابه، ولكنها على كل حال تأخذ من التصنع بأطراف قوية، وتذهب هذا المذهب نفسه الرسالة الهزلية، إذ نراه يسخر من ابن عبدوس متطرقًا في أثناء سخريته إلى ذلك كثير من الأمثال، وحوادث التاريخ وأعلامه، واستطاع في أثناء ذلك أن ينفذ إلى التأثر بالجاحظ في رسالة التربيع والتدوير، وانظر إليه يقول في بعض جوانبها عن السيدة، التي أرسلها ابن عبدوس: إنها زعمت لولادة: "أن بطليموس سوى الاضطرلاب بتدبيرك، وصورة الكرة على تقديرك، وأبقراط علم العلل

والأمراض بلطف حسك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك، وكلاهما قلدك في العلاج، وسألك عن المزاج، واستوصفك تركب الأعضاء، واستشارك في الدواء والداء، وأنك نهجت لأبي معشر طريق القضاء، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء، وأعطيت النظام أصلًا أدرك به الحقائق، وجعلت للكندي رسمًا استخرج به الدقائق، وأن صناعة الألحان اختراعك، وتأليف الأوتار والأنغام توليدك وابتداعك، وأن عبد الحميد بن يحيى باري أقلامك، وسهل بن هارون مدون كلامك، وعمرو بن بحر مستمليك، ومالك بن أنس مستفتيك، وأنك الذي أقام البراهين، ووضع القوانين، وحد الماهية، وبين الكيفية والكمية". والحق أنك مهما قرأت في آثار الأندلسيين، فستراهم يرجعون دائمًا إلى أصول مشرقية يقلدونها، ويستمدون منها، إما في تنسيق الموضوع على نحو ما استفاد ابن زيدون من الجاحظ في رسالته الهزلية، وإما في العناصر التي يؤلفون منها نماذجهم على نحو ما رأيناه في الرسالة الجدية، إذ ذهب يستعين فيها بشعر لأبي ذؤيب، والمتنبي وغيرهما ينثره في أثنائها، وكما ذهب يستعين بأمثال قديمة. وهو ضيف إلى ذلك آيات من القرآن الكريم ألفاظًا يجمل بها عمله، وأيضًا فإنه يتصنع لذكر كثير من حوادث الديانات، وخاصة حوادث الإسلام كما يتصنع لكثير من أعلام التاريخ، وهذا هو الجديد الذي كان يأتي به ابن زيدون لبيان تفوقه وبراعته، وهي أشياء كلها ترد إلى المشرق، وليس للأندلس فيها إلا فضل النموذج ، الذي يجمعها بعضها إلى بعض، فإذا هي تستوي في صورة أدبية خاصة، ومع ذلك فليس من شك في أن ابن زيدون يوضع في الطبقة الأولى من كتاب الأندلس، وأدبائها على مر العصور!

٢-لسان الدين بن الخطيب:

هو، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي، ولد عام ٧١٣ للهجرة، وهو من بيت عرف قديما ببني الوزير، وحديثًا ببني الخطيب ، وهو بيت اشتهر بالعلم والفقه والأدب والطب، وقد روى صاحب نفح الطيب لأبيه شعرًا منه قوله :

الطب والشعر والكتابه ... سماتنا في بني النجابه ، وقد نسج لسان الدين على منوال أبيه، فكان "نفيس العدوتين، ورئيس الدولتين، بالإطلاع على العلوم العقلية، والإمتاع بالفهوم النقلية" ، وقد ذكره ابن خلدون، وهو معاصر له فقال: "قرأ وتأدب على مشيخة غرناطة، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب، وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه، وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه، ونبغ في الشعر والترسل بحيث لا يجارى فيهما، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره، وملأ الدنيا بمدائحه، وانتشرت في الآفاق، فرقاه السلطان إلى خدمته، وأثبته في ديوان الكتابة ببابه مرؤوسًا بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم، والنثر وسائر العلوم الأدبية" ، فلما توفي ابن الجياب ورث رتبته من بعده ، وثم توفي أبو الحجاج فازدادت منزلته عند ابنه أبي عبد الله إلى أن نشبت ثورة أبعدت السلطان، عن عرشه، وقبض فيها على ابن الخطيب وصودرت أملاكه، ولكنه تخلص من ذلك بشفاعة السلطان أبي سالم المريني، صاحب المغرب ولحق بسيده أبي عبد الله هناك وصحبه في غربته، ولما رجع أبو عبد الله أخيرًا إلى عرشه في غرناطة، استدعاه وألقى إليه بمقاليد الملك والسياسة "وانفرد بالحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه، وعلقت عليه الآمال، وغشي بابه الخاصة والكافة، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته، فتوافقوا على السعاية فيه" ، وأحس لسان الدين بذلك، ففر إلى أبي فارس المريني وكان قد ملك تلمسان فأكرمه ، إلا أن رجال

حاشيته سرعان ما أوغروا صدره عليه، إذ اتهموه بالزندقة، فألقى به في غياهب السجون ودس إليه من قتله عام ٧٧٦، وبذلك انتهت حياته هذه النهاية الدامية.

وقد كان لسان الدين أبرع كاتب أخرجته الأندلس في عصورها الأخيرة، حتى قيل: إنه كاتب الأرض إلى يوم العرض، وخصص له المقري مجلدين من نفح الطيب عرض فيهما عرضًا واسعًا لأساتذته، وحياته السياسية والأدبية . وإذا كان السان الدين لم ينجح في حياته السياسية، فقد نحج نجاحًا عظيما في حياته الأدبية، وهي حياة كانت منوعة، إذ لم يقف كتابته عند الرسائل الديوانية أو الشخصية، بل كتب كتبًا كبيرة في التاريخ والتصوف، والموسيقى والفقه والطب، وقد نهج لسان الدين في هذه الكتب نهج السجع، وإن كان لا يلتزمه دائمًا على نحو ما نعرف في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة"، وهو مطبوع فإنه قلما يسجع فيه، ومن يرجع إلى رسائله يجدها تمتاز بالإطناب المسرف، وما يطوى في هذا الإطناب عادة من لف ودوران يجعلنا نذكر أصحاب التصنع في لمشرق، وإنه ليتسع بإطنابه حتى يفقد قارئه نشاطه؛ لأن منظر المعاني ينبسط أمام بصره انبساطًا يخرجها من حيز التنوع إلى حيز الاستمرار والإملال، وتنبه لذلك بعض السابقين فقال: "هو كاتب مترسل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار، الذي لا يخلو من عثار، والإطناب، الذي يفضي إلى الاجتناب، والإسهاب، الذي يقد الإهاب" ، وليست ظاهرة الإطناب هي كل ما اقترضه في سجعه برسائله من أصحاب التصنع من المشارقة، بل تقترن بها ظاهرة أخرى معروفة لديهم، وهي ظاهرة التصنع لمصطلحات العلوم ، وخاصة العلوم اللغوية، وحقًا إن ابن الخطيب لا يكثر منها، ولكنها موجودة –على كل حال– في نثره ورسائله، ونحن ننقل إلى القارئ صدر رسالة كتب بها عن سلطانه إلى خليفة الموحدين بالأندلس، وهي رسالة طويلة تقع في نحو عشرين صحيفة من القطع الكبير، وهو يستهلها على هذا النمط : "الخلافة التي ارتفع عن

عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف، واستقلت مباني فخرها الشائع، وعزها الذائع، على ما أسسه الأخلاف، ووجب لحقها الجازم وفرضها اللازم، الاعتراف، ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والأكناف، فامتزاجنا بعلائها المنيف، وولائها الشريف، كما امتزج الماء والسلاف، وثناؤنا على مجدها الكريم، وفضلها العميم، كما تأرجت الرياض الأفواف، لما زارها الغمام الوكاف، ودعاؤنا بطول بقائها، واتصال علائها، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراف، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العميمة، لا تحصره الحدود، ولا تدركه الأوصاف، وإن عذر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير، الحق والإنصاف" . واستمر لسان الدين في هذه المقدمة طويلًا، ونحن نكتفي بهذه القطعة منها؛ لأننا نستطيع أن نتبين فيها الصفات لبعض مصطلحات العلوم، إذ تصنع لألفاظ القواعد، والمباني والجزم والحدود، وليس ذلك كل ما تميزه في هذه القطعة، فهناك جانب لعله أهم، وأدخل في باب التصنع، وذلك أنه بنى سجعاته في هذه القطعة كلها على الفاء، ولكن تأمل في القطعة، فإنك تراه استخرج من كل سجعة سجعتين داخليتين، وما من شك في أن هذا ضرب جديد من التصعيب، وصل إليه لسان الدين؛ لأنه يريد أن يثبت تفوقه في عصره، فإذا هو لا يسجع سجعًا بسيطًا على طريقة الكتاب الأندلسيين من قبله، وإنما يسجع هذا السجع المركب إن صح هذا التعبير، واستمر معه في الرسالة فستراه يصف حصار سلطانه لقرطبة على هذا النحو: "ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافرة، وخزائن المزاين الوافرة، وربة الشهرة السافرة والأنباء المسافرة، قرطبة، وما أدراك ما هيه، ذات الأرجاء الحلية الكاسية، والأطواد الراسخة، والمباني المباهية، والزهراء الزاهية، والمحاسن غير المتناهية، حيث هالة بدر السماء، قد استدارت من السور المشيد البناء ونهر المجرة، من نهرها الفياض، المسلول حسامه من غمود الغياض، قد لصق بها جارًا، وذلك الدولاب،

المعتدل الانقلاب، قد استقام مدارًا، ورجع الحنين اشتياقًا إلى الحبيب الأول وادكارًا، حيث الطود كالتاج، يزدان بلجين العذب المجاج، فيزرى بتاج كسرى ودارا، حيث قسي الجسور المديرة، كأنها عوج المطي الغريرة، تعبر النهر قطارًا، حيث آثار العامري المجاهد، تعبق بين تلك المعاهد شذى معطارًا، حيث كرائم السحائب، تزور عرائس الرياض الحبائب، فتحمل لها من الدر نثار، حيث شمول الشمال تدار على الأدواح، بالغدو والرواح، فترى الغصون سكارى، وما هي بسكارى، حيث أيدي الافتتاح، تفتض من شقائق البطاح، أبكارًا، حيث ثغور الأقاح الباسم، تقبلها بالسحر زوار النواسم، فتخفق قلوب النجوم الغيارى، حيث المصلى العتيق قد رحب مجالًا وطال منارًا، وأزرى ببلاط الوليد احتقارًا، حيث الظهور المثارة بسلاح الفلاح تجب عن مثل أسنمة المهارى، والطبون كأنها –لتدميث الغمائم– بطون العذارى".

وأنت ترى لسان الدين في هذه القطعة، يلتزم لازمة السجع المركب التي لاحظناها في القطعة السابقة، وقد ظهرت هنا عليه آثار التكلف بأوسع مما ظهرت في القطعة السالفة؛ لأنه كان هناك بادئًا للرسالة، أما هنا فقد طال به النفس، فظهرت علامات التعب عليه، وكلمة التعب لا تكفي، فإن ما أداه في هذه القطعة لا تنهض به هذه الكلمة، وإنما تنهض به كلمة أخرى كالتصعيب أو التعقيد، والحق أن لسان الدين كان يسعى حثيثًا في أعماله إلى التمسك بأهداب مذهب التصنع، الذي شاعر في المشرق، وقد ذهب يقترح على الكتاب هذا السجع المركب ليدل على مبلغ تفننه وجودة ترسله، وإنه ليضيف إلى ذلك تكلفًا واسعًا، لألوان البديع وزخارفه، وخاصة السجع والجناس: وكانت يشغف –كما نرى في هذه القطعة– بالجناس الناقص، ولكن لا تظن أن هذا هو منهج لسان الدين الدائم، فقد كان الكاتب الأندلسي يتنقل بين المفاهيم المختلفة للمشارقة، ومن أجل ذلك كنت ترى عند لسان الدين رسائل كهذه الرسالة تندمج في ذوق أصحاب التصنع، وما تلبث

أن ترى له رسائل أخرى تندمج في ذوق أصحاب التصنيع، وقد ينفر من الذوقين جميعًا، كما نرى في كتابه "الإحاطة"، وإذا فابن الخطيب لا يرتبط بمذهب معين من مذاهب المشرق، بل هو يتنقل بين هذه المذاهب، وإن كان أقرب مذهب إلى ذوقه وذوق عصره هو مذهب أصحاب التصنع، ولكن ذلك لا يمنع أن نجد عنده نماذج يحاكي بها أصحاب الصنعة والتصنيع، وهذا شيء لا يختص بلسان الدين ولا بنماذجه، بل هو عام في الأندلس لعصره وقبل عصره، فدائمًا نجد الكاتب الواحد تتوزعه مذاهب المشرق المختلفة، وغاية ما في الأمر أن الأندلسيين، كان يغلب عليهم في العصر الأموي ذوق أصحاب الصنعة، بينما كان يغلب عليهم في عصر ملوك الطوائف ذوق أصحاب التصنيع، أما بعد ذلك فقد غلب عليهم ذوق أصحاب التصنع، ومع ذلك فقد درسنا ابن شيهد، فوجدناه يتوزعه المذهبان الأولان، بينما كان ابن زيدون في عصر ساد فيه ذوق التصنيع، ومع ذلك، فقد رأيناه في بعض رسائله، ينحو نحو أصحاب التصنع من بعض الوجوه، وهذا لسان الدين ذوقه وذوق عصره تصنع، واندمج في التصنع، ومع ذلك فله رسائل تخلو من هذا التصنع، بل قد تخلو من التصنع والتصنيع جميعًا، وهذا نفسه هو ما نريد أن نصل إليه، وهو أن الكتاب في الأندلس، كانوا يخلطون في محاكاة المذاهب المشرقية ونماذجها، فلم يتقيد أحد منهم بمذهب معين من جهة، ولم يدرسوا مذاهب المشرق دراسة علمية منظمة من جهة أخرى، بحيث تتيح لهم هذه الدراسة أن يبتكروا مذهبًا أو يستحدثوا اتجاهًا، فقد كانوا جميعًا يعيشون في إطار المذاهب المشرقية معيشة، تجلعنا نزعم أن أصول هذه المذاهب، كانت أثبت وأروع في تاريخ النثر العربي من أن يصيبها الأقاليم المختلفة بتبديل، أو تغيير.

الباب الثاني عشر
دراسة أدبية لنص نثري
رسالة
التوابع والزوابع

أ-حياة ابن شهيد:

ولد أبو عامر ابن شهيد مؤلف رسالة التوابع والزوابع بقرطبة في خلافة هشام بن الحكم بن عبد الرحمان الخليفة الأموي الذي حجر عليه الحاجب محمد بن أبي عامر ولقد حظي ابن شهيد في طفولته برعاية خاصة من الحاجب هذا ولقي منه عطفا كبيرا فبلغ في الدولة العامرية رتبة الوزارة وبقي أمينا للعامريين مخلصا لهم حتى بعد سقوط دولتهم (سنة ١٠٠٩ م) ولكن كان لابن شهيد خصوم يكرهونه ويكيدون له فاتهموه شتى الاتهامات عند الخليفة الأموي المستعين فسجن ثم أفرج عنه ومرض في آخر حياته بداء الفالج خاصة وانه كان يسترسل في ارتشاف الملذات والانغماس في الشهوات. وتوفي في الرابعة والأربعين من عمره سنة (١٠٣٤م) . ونجد آثار ابن شهيد الأدبية متفرقة في بعض كتب الأصول مثل كتاب الذخيرة لابن بسام ويتيمة الدهر للثعالبي ومطمح الأفس للفتح ابن خاقان

ونفح الطيب للمقري ووفيات الأعيان لابن خلكان. وعرف لابن شهيد شعر كثير لا يختلف فيه عن غيره من الشعراء الأقدمين ونجد في رسالة التوابع والزوابع التي نشرها الاديب اللبناني بطرس البستاني سنة ١٥٥١ بعد أن صححها وحقق فيها وشرحها ويوبها دراسة تاريخية أدبية عن حياة ابن شهيد ولهوه ومجونه وخصومه وحساده.

ب- فما هي رسالة التوابع والزوابع ؟

١-هي قصة طويلة لم يتهيأ للأدب العربي بإثباتها كاملة، فقد ضاع أكثرها بين ما ضاع من آثار أدبائنا، واستطاع صاحب الذخيرة أن يحفظ لنا طرفاً منها يصلح في حد ذاته لأن يكون قصة مكتملة رغم اجتزائه.

٢-وتقسم من حيث موضوعها وأغراضها في رأي بطرس البستاني إلى مدخل وأربعة فصول :

أ-الفصل الأول توابع الشعراء

ب-والفصل الثاني توابع الكتاب

ج-والفصل الثالث نقاد الجن

د-والفصل الرابع حيوان الجن.

٣-وموضوعها أدبي قصصي يحرص ابن شهيد أن يعرض فيها المشكلات الأدبية البيانية التي عرضت له في زمانه مع زملائه الأدباء والشعراء ولقد اتخذ وادي

الجن مسرحا لرسالته كما اتخذ الجن أبطالا حملهم آراءه الأدبية في خصومه وحساده من رجال السياسة والعلم والأدب.

٤-هناك حيرة في تصنيف النص

٥-ما طبيعة هذا النصّ،

٦-ما هو هدفه من هذه الرّسالة؟

٧-هل تأثر ابن شهيد في كتابته لرسالة التّوابع والزّوابع بالفكر اليوناني كما ذهب بعضهم ،

٨-وما الجنس الأدبي الذي تندرج تحته هذه الرسالة؟

٩-وما مدى إحكام البناء الفني للقصة في هذه الرسالة؟

١٠- وهل ظهرت طبيعة عصره في رسالته؟

١١-لمن كان سبق الظهور رسالة التوابع والزوابع أم رسالة الغفران للمعري؟

١٢-وإلى أيّ مدى كان موفقاً في إيصال الفكرة إلى المتلقي؟

ج-التعريف برسالة التّوابع والزّوابع:

١-رسالة التّوابع والزّوابع رسالة نثريّة خاطب فيها ابن شُهيد صديقه أبا بكر بن حزم وعرض فيها أروع نتاجه الشّعريّ والنّثريّ، وقرنه إلى نتاج كبار أدباء المشرق مبيناً تفرّده وتفوّقه، وعرّض بخصومه وحسّاده من معاصريه الأندلسيّين

والقرطبيّين. والتّوابع والزّوابع قصّة رحلةٍ خياليّة إلى عالم الجنّ قام بها ابن شهيد مع تابع اسمه زهير بن نُمير ولقي شياطين المشرق وكتّابهم، وجرت بينه وبينهم مطارحات أدبيّة، ومناقشات لغوية تجلّت فيها آراء ابن شهيد النقديّة، وانتزع اعترافهم بتفوّقه وجودة أدبه، فضلاً عن الفكاهات والطّرف وروح الدّعابة التي سرت في هذه الرسالة . يحمله زهير على متن الجو إلى أرض الجن حيث التقى هناك بتوابع الشعراء المشهورين عتبة بن نوفل تابع امرئ القيس وعنترة بن العجلان تابع طرفة، وأبا الخطار تابع قيس بن الخطيم من الشعراء الجاهلين، ولقي عتّاب بن حبناء تابع أبي تمام، وأبا الطبع تابع البحتري وحسين الدَّنان تابع أبي نواس، وحارثة ابن المغلس تابع المتنبي، كما التقى ببعض شياطين الكتاب، وهي فكرة جديدة صاحبها أبو عامر؛ ذلك أنه لم يكن من الشائع أن هناك شياطين أو توابع للكتاب، التقى أبو عامر بشياطين صفوة كتاب العربية وهم عتبة بن أرقم تابع الجاحظ، وأبو هبيرة تابع عبد الحميد، وزبدة الحقب تابع بديع الزمان. ويخرج أبو عامر من هذه المقابلات مجازاً مشهوداً له بالفضل، كأن يقال له أحد الجن ما أنت إلا محسن على إساءة زمانك.

٢-ولا يقف بابن شهيد في قصته عند مقابلة التوابع الذين مر ذكرهم، وإنما تلقي به طبيعة رحلته إلى مجلس أدب عقده أدباء الجن وهي جلسة نقدية يعرضون فيها لأقوال الشعراء ويستعرض ابن شهيد أمام منتدى الجن موهبته الشعرية والنقدية، وتمضي قصة التوابع والزوابع، فيصل أبو عامر وتابعه زهير بن نمير إلى وادٍ آخر من أودية الجن وتلقي به المقادير إلى نادٍ لحمير الجن وبغالها

ويلتقي ببغلة أديبة ناقدة وبأوزة أديبة وتنتهي المحاورة بتغلبه على حيوان الجن الأدباء والنقاد وبذلك تنتهي قصة التوابع والزوابع أو بالأحرى تنتهي الجزء الذي وصل إلينا منها عن طريق كتاب الذخيرة.

د-ومما ورد في القصة:

١-"لله أبا بكر ظنٌ رميته فأصميت، وحدسٌ أمّلتّه فما أشويت ، فقلت كيف أوتى الحكم صبياً، وهزّ بجذع نخلة الكلام فالسّاقط عليه رطباً جنيا، أمَا به شيطاناً يهديه، وشيصباناً يأتيه وأقسم أن له تابعة تنجده، وزابعة تؤيده، ليس هذا في قدرة الإنس، ولا هذا النّفس لهذه النفس. فأما وقد قلتها، أبا بكر، فأصخ أسمعك العجب العجاب" د-ويمضي يقص عليه نبأ تعلقه بأهل العلم والمطالعة حتى يصل إلي "فأرتج عليّ القول وأفحمت، فإذا أنا بفارس على باب المجلس على فرس أدهم كما بقل وجهه، وقد اتكأ على رمحه وصاح بي وقلت له: بأبي أنت، من أنت؟ قال: أنا زهير بن نُمير من أشجع الجن، قلت: وما الذي حداك إلى التصور لي؟ فقال: صادفتَ قلباً إليك مقلوباً، وهوىً نحوك مجنوناً. وتحادثنا حيناً ثم قال: متى شئت استحضاري فأنشد هذه الأبيات.

وإلى زهير الحُبَّ يا عَزَّ إنه إذا ذكرته الذاكرات أتاها

وأوثب الأدهم جدار الحائط ثم غاب عني. وكنت، أبا بكر، متى أُرتج عليَّ أو انقطع بي مسلك، أو خانني أسلوب، أنشد الأبيات فيمثلُ لي صاحبي فأسير إلى ما

أرغب، وأدرك بقريحتي ما أطلب. وتأكدت صحبتنا، وجرت قصص لولا أن يطول الكتاب لذكرت أكثرها، لكني ذاكر بعضها".

٢-نصّ قصة تابع امرئ القيس: والنّص الذي بين يدي ما هو إلاّ قصة جمالها في نسج أسلوبها، ودقّة ألفاظها، وبُعد مراميها الفكريّة والحضاريّة والفنيّة، وقد جعل ابن شهيد بدايتها: "تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشعراء، وما كان يألفهم من التوابع والزّوابع، وقلت: هل حيلةٌ في لقاء مَن اتّفق منهم؟ قال: حتى أستأذن شيخنا، وطار عنّي، ثمّ انصرف كلمح البصر، وقد أُذن له، فقال: حُلّ على متن الجواد، فصرنا عليه، وسار بنا كالطّائر، يجتابُ الجوّ فالجوّ، ويقطع الدّوّ فالدّو، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفت جوّاً لا كجوّنا. متفرعُ الشّجر عطرْ الزّهر، فقال لي: حللت أرض الجنّ أبا عامر، فبمن تريد أن نبدأ؟ قلت: الخطباء أولى بالتقديم لكني إلى الشعراء أشوق. قال: فمن تريد منهم؟ قلت: صاحب امرئ القيس. فأمال العنان إلى وادٍ ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره، فصاح: يا عتيبة بن نوفل بسقط اللّوى فحومل، ويوم دارة جلجل، إلاّ ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك وسمعت من الإنسيّ، وعرّفتنا كيف إجازتك له. فظهر لنا فارسٌ على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير، وحيا صاحبك! أهذا فتاهم؟ قلت: هو هذا، وأيّ حمرة يا عتيبة! فقال لي: أنشد، فقلت: السيّد أولى بالإنشاد، فتطامح طرفه، واهتزّ عطفه، وقبض عنان الشقراء، وضربها بالسوط، فسمت تحضر طولاً عنّا وكرّ، فاستقبلناه بالصعدة هازّاً لها، ثمّ ركزها، وجعل يُنشد:

سما لكَ شوقٌ بعدَ ما كانَ أقصرا

حتى أكملها، ثمّ قال لي: أنشدْ، فهممتُ بالحيصة، ثم اشتّدتْ قوى نفسي، وأنشدتُ:

شجتهُ مغانٍ من سُليمى وأدْؤُرُ

ومِنْ قُبَّةٍ لا يدركُ الطّرفُ رأسها تزلُّ بها ريحُ الصبّا، فتحدَّرُ

تكلّفْتُها، والليلُ قدْ جاشَ بحرهُ وقدْ جعلتْ أمواجُهُ تتكسَّرُ

ومِنْ تحت حضني أبيضٌ ذو سفاسقٍ وفي الكفّ من عسَالةِ الخط أسمَرُ

هما صاحباي من لَدُنْ كنتُ يافعاً مُقيلانِ من جِدّ الفتى حين يَعْثُرُ

فذا جَدْولٌ في الغِمدِ تُسقى به المُنى وذا غصُنٌ في الكفّ يجنى، فيثمرُ

فلمّا انتهيتُ تأمّلني عُتيبةُ، ثم قال: اذهب، فقد أجزْتُكَ، وغاب عنا" .

هـ-فكرة القصّة:

و رحلةٍ خياليّة قام بها ابن شُهيد مع زهير بن نمير للقاء تابع امرئ القيس هذا اللقاء يقدّم فيه ابن شهيد نتاجه الشّعري، لينال إجازة من تابع امرئ القيس.

و-البناء الفنّي للقصّة وجماليّات الأسلوب:

١-العقدة : جعل الكاتب بداية قصته لقاء مع زهير بن نمير فيه تمت إعادة ذكريات من التوابع والزوابع، هذه البداية هي بمنزلة العقدة الرئيسة في القصّة التي انطلقت من خلالها الأحداث،

٢-وعلى منوال هذه البداية نسج ابن شهيد قصتّه لرغبة في نفسه، هي شوقه وتوقه للقاء تابع امرئ القيس، هذا الشوق يوحي باللون الأحمر المعبر عن تعطّشه للقاء ذلك التّابع كي يحظى بإجازة منه.

٣-وابن شهيد يمثّل شخصيّة البطل في هذه القصّة، كما يمثلها في أغلب قصصه، فهو البطل والرّاوي، بعكس ما هي عليه الحال في الملاحم، إذ تقوم أبطال القصّة بالقول والفعل، ويبقى الرّاوي خلف السّتار الذّاتي يراقب الأحداث وتطوّراتها. وتأتي شخصيّة زُهير لتكون ظلاً لشخصيّة ابن شهيد إذ ترافقه أينما توجّه، وحيثما حلّ وتُسهم في إغناء مقدّمة القصّة من خلال الحوار الذي دار بينهما، والذي دلّت عليه المفردة (تذاكرتُ) التي توحي للوهلة الأولى بتداعي شريط من الذّكريات، وقد حُدّدت ماهيته ضمن السيّاق عن طريق التّصريح بأنّ التّداعي مرتبطٌ بالتراث القديم.

٤-وفي الحوار يبدو سلوك ابن شُهيد الحضاري في تساؤله، وهذا التساؤل يوحي بتواضعه والتّواضع يرتبط بوقار العلماء وجلالهم، وهذا السلوك هادئ لوقار صاحبه، هذا الوقار اكتسبته نفسيته من أدبي النفس والدّرس اللذين نهلهما من منابع الثقافة، ومجالس الخلافة، فقد ننشأ نشأة مترفة في زمن المنصور، وكان بعد ذلك على صلة بخليفتين هما يحيى بن حمّود والمستظهر .

٥-ولا عجبَ أن يظهر سلوكه في ألفاظه لأنّ الإنسان ابن البيئة، وقد كان للبيئة دور بارز في تكوين شخصيته، وصقل مواهبه. وهدوء النفس يرتبط بسياق القصة من خلال التركيب اللغوي الذي تتألف فيه العبارات محافظة على الوحدة العضويّة عن طريق العبارة الدّالة على السلوك تارة، ومن خلال اللفظة المنسجمة مع التعبير والملائمة للجو تارة أخرى.

٦-ويظهر سلوك الأندلسيّ في احترام الكبار على لسان زهير حتى أستأذن شيخنا، وحتى في هذا السياق توحي بعمق الشّعور بإكبار هؤلاء الشيوخ، ويوجز بحذف الجمل لدلالة الكلام السابق على المحذوف، ولو ذُكر هذا المحذوف لعُدّ ذلك ضرباً من اللغو والحشو. وبعد الاستئذان يمضي، والسيّاق يشير إلى ذلك وطار عنّي، ثمّ انصرف كلمح البصر إذ يتمّم هذا الحدثُ الحدثَ السابق، وتأتي جملة وقد أُذن له مؤكدة سبب انصراف زهير، وموجزة في التّعبير.

٧-وشخصية الشيخ هي الثالثة، وقد جاء بها ابن شهيد، لتكون حلقة وصل بين ابن شهيد ووادي عبقر حيث يلقى تابع امرئ القيس، هذه الشخصية لم يتحدّث عن هيئتها وأوصافها، بل اكتفى بالإشارة إليها لأهميّتها في نيل تذكرة القبول بالمغادرة عن طريق الحوار الذي جعل من هذا النيل حدثاً ثالثاً في القصّة عبر تسيير شخصية الشيخ له، وتأصيله بدعوة من زهير لابن شهيد لاستقلال جوادِ يرحلان عليه.

٨-وتبدو الدقة باستخدام اللفظة الملائمة للسياق في لغة الحوار التي تجذب النّفس لمتابعتها لما فيها من بساطة ووضوح، فالمفردة حُلّ التي جاء بها بدلاً من

امتطِ فيها دلالةٌ على ذوقه الفنّي المنطبع بحضارة الأندلس، كما أنّ نطقها فيه انسيابيّةٌ ورشاقة ، على حين أن امتطِ صعبة الإرسال لتنافر حروفها وبُعْدِها عن تآلف الألفاظ في هذا السياق، كما أنّ حلّ تعطي الصورة المتخيّلة في الذهن عن ذلك الفارس الذي تعلوه الهيبة والوقار، وهو يتأهب لاعتلاء الجواد.

٩-وابن شهيد يركّز على وحدة نسيج القصة عبر اللفظ سار بنا بدلاً من حلّق لأنّ الجواد يسير، ولا يُحلّق من جهة، ولأنّ ابن شُهيد يريد نقل المتلقي من الواقع إلى الخيال، إلى أرضٍ ليست كأرض البشر، وهنا يدخل عنصر التّشويق ليثير في النفس الدهشة والغرابة، وليجعلها تنتظر معرفة المزيد، ويأتي بمفرده التمحتْ بدلاً من شاهدت ليؤكد دقته في استخدام اللفظة المناسبة للجوّ، فهو في رحلة فضائية، يلمح معالم الأرض دون التماس جزئياتها . ويستمر جو الوقار في هذا السياق ليتمم جو السياق السابق فبمن تريد أن نبدأ؟ دلالة على احترام المتحاورين بعضهم لبعض، وهو بهذا يعطيه حق الاختيار، وفي هذه العبارة إيحاءٌ بحرية الفكر في المجتمع الأندلسي و كانت أحد أسباب ازدهار تلك الحضارة.

١٠-ويتابع ابن شهيد حديثه الرزين الخطباء أولى بالتقديم على الرّغم من شوقه للشعراء، وهذا الأسلوب في الكلام مرتبطٌ بآداب الحديث،

١١-وكأنّ ابن شهيد يشير إلى تقنيات التربية في ذلك العصر، وطلبه لصاحب امرئ القيس فيه دلالةٌ على نفسيّته النزّاعة إلى القمّة، وعلى أنّ السيد لا يقابل إلاّ السيد، هذا الطلب كان عن طريق الانتقال من العام إلى الخاص، فهو يخصّص

امرأ القيس لأنه يدرك في أعماق نفسه أنه أفضل المشارقة من الشعراء، وهذا يدل على ارتباط ابن شهيد بالتراث العربي القديم.

١٢-ويمضي بالتصوير، فهو وزهير على متن الجواد في أعلى الوادي، وعتيبة في قعره والوادي لم يكن وروده عبثاً في هذا السياق بل جاء مرتبطاً بالأسطورة العربيّة القائلة بوجود وادي الجن الذي يقطن فيه ملهمو الشعراء، كما أنّ جوّ السياق يوحي بجنة خضراء مكتظة بالأشجار تجعل الناظر إليها يشعر ببطء الزمن لما فيها من ألوان وأشكال، كما تطرب النفس لصداح العصافير، الذي يُشعر النفس بالطمأنينة والهدوء، ويجعلها تنتشي لما ترى، وتطرب لما تسمع.

١٣-وفي هذا المشهد الطبيعي إشارة إلى فن توقف الفارس فأمال العنان، والإمالة ترتبط بالمكان العالي، وفي ذلك دلالةٌ على ارتباط اللفظ بالمعنى في سياق القصة، ومفردة تنكسّر) تدلّ على الاستمرار والدّوام، كما أنّ الشدة الظاهرة على اللفظ توحي بكثرة الأشجار، وتداخلها، ومفردة تترنّم تتلاءم مع ذلك الجو الطبيعي الذي تصدح فيه العصافير، وتغنّي لجمال الطبيعة.

١٤-وينادي زهير صاحب امرئ القيس باسمه، ذاكراً الأماكن التي ارتبط بها، هذه الأماكن تؤكد تواصل ابن شهيد مع التراث القديم، كما أنها تلخّص مسيرة حياة امرئ القيس وأيّام الترف والرخاء في دارة جلجل، وأيام البؤس والشقاء على زوال ملك كندة، فالبكاء على سقط اللوى فحومل.

١٥-هذا الفارس بما أنّه تابعٌ، فهو يعرف زهير بن نمير، والتحيّة التي أدلى بها حيّاك الله يا زهير تشير إلى بداوة هذا الشخص، وبعدها يتساءل مستغرباً أهذا فتاهم؟ هذا التساؤل يحمل في طياته الأنفة والكبرياء، كما أنّ مفردة فتاهم التي وردت على لسان عتيبة فيها دلالة على أنّ ابن شهيد يريد تمثيل الأدباء الأندلسيين في حضرة تابع امرئ القيس، كما أنّ فيها إيحاء بحبّ ابن شهيد لذاته ، فهو يرى نفسه أفضل من الجميع، وتأتي الإجابة من زهير هو هذا! لتؤكّد ذات ابن شهيد، ولتعلي من قدره أمام عتيبة عن طريق اسم الإشارة، ويوجز في الحوار بحذف الجمل التي أراد من خلالها عتيبة الاستفسار عن سبب مجيء زهير، كما تحذف الجمل من الكلام السابق، وكأنّ حديثاً سابقاً دار بين عتيبة وزهير عن رغبة ابن شهيد في المجيء، وكأنّ عتيبة على اطلاع سابق على غاية ابن شهيد في المجيء، هذا الإيجاز يفسح المجال للخيال لتصوّر مدى فراسة عتيبة وذكائه في إدراك سبب مجيء هؤلاء.

١٦-ويتساءل زهير عن المكانة التي تمنح لابن شهيد وأيّ حمرةٍ يا عتيبة، وبهذا التساؤل تنتهي مهمة زهير ليلقى ابن شهيد عتيبة هذا اللقاء هو الحدث الأهم في القصة لأنّه يؤدّي إلى المغزى من خلال الحوار الذي دار بينهما إذ يطلب عتيبة من ابن شهيد إنشاد الشعر، ويبدو ابن شهيد متواضعاً كما هي الحال في بداية القصة، هذا التواضع فيه اعتراف بسيادة امرئ القيس لأنه الأقدم، وهنا يحترم ابن شهيد من هو أكبر منه قدراً، لأنّه يريد أن يظهر بمظهر الشاعر الممثّل لشعراء الأندلس عليه هيبة الكبار، وتسيّر سلوكه طبائع وعاداتٌ استقاها من الوسط

الاجتماعي الأندلسي والقصّة في هذا السياق تقدّم جانباً هامّاً من جوانب التربية التي يتمثّل بها ذلك العصر، فقد هذبت طباعَه أناقةُ القصور التي استظلّ في أفيائها، وخالط أصنافاً متعدّدة من أبناء المجتمع أيام النعيم والبؤس، فهو نقطة الدّائرة في عصره يرفع الأمراء قدره، ويخطب الوزراء صداقته، ويتبارى الشعراء والكتّاب بمساجلته ، كلّ هذه الأمور ترتبط بهدوء حديثه، ووقار كلامه، وبروز ذاته.

١٧-وابن شهيد عندما طلب من عتيبة الإنشاد ملقباً إياه بالسيد، لم يكن لقبه عبثاً، بل كان يريد من هذا اللقب اعتراف عُتيبة به، كما أن عُتيبة عندما يسمع هذا الكلام ينتشي، وهذا ما حصل من خلال الحركات التي أبداها حتى إن المتلقي يخاله في زهوه وكبريائه يستعدّ لأمرٍ عظيم، وهو في وادي الجن، وابن شهيد في أعلى الوادي، ويجمع بينهم الحوار، واستجابة عُتبة تقترن بالخيلاء من خلال الإيحاء الموجود في اللفظ فتطامح طرفه، وهذه نظرة الكبار الذي يأنفون من انحناء الرّاس، كما أنّها ترتبط ببيئة القصّة فعتيبة في الوادي، ويريد الوصول إلى ابن شهيد. ويُتبع تطامح الطرف باهتزاز العطف واهتزّ عطفه إشارة إلى هيبة الموقف، وتتحرّك الصورة بين هذا وذاك إلى ضرب الفرس التي يجعلها تتحرّك، ويركّز ابن شهيد على رشاقة اللفظ المرتبط بالحدث فسمت والمعبّر عن نفسيّة ابن شهيد الطامحة للقمّة، والمفردة سمت تؤكّد تماسك السيّاق، ووحدته العضويّة ، في ارتباطه مع السّياق السابق، وتتمّم هذه المفردة فسمت المعنى، كما تؤكّد وجود عتيبة في الوادي وابن شهيد في أعلاه.

١٨-وينطلق عتيبة إليهم، فيستقبلونه، فيتوقّف برهة، هذا الوقوف يرتبط بفنّ إنشاد الشّعر، عند الاستعداد للإلقاء حين يريح الشّاعر أعصابه، ويتأهّب للإنشاد، وهذا ما فعله عُتيبة ثم أنشد:

سما لكَ شوقٌ بعد ما كان أقصرا

١٩-واكتفاء ابن شُهيد بذكر هذا الشطر على لسان عتيبة له دلالةٌ على نفسية ابن شُهيد التي ترى نفسها في القمّة دوماً وحالة السمو تشير إلى ذلك، كما أنّ هذه المفردة ترتبط بشخصية قائلها، فهو ابن ملك كنده، وقمّة شعراء المشرق، وتأتي كاف الخطاب لك لتدل على حالة السمو التي تلازم نفسية ابن شهيد، والمفردة شوق جاءت بصيغة النكرة لتدلّ على كثرة الشوق وشدته من جهة ولتبيّن عمق الصلة بينهما، وسمو الشوق بعد ركوده يؤجج المشاعر ويجعلها تضطرم داخل النفس، هذا الاضطرام يوحي باللون الأحمر المعبّر عن العلاقة الحميمية بينهما، وحالة السمو التي وردت على لسان عتيبة باختيار ابن شهيد لها في سياق القصة ما هي إلاّ تأكيدٌ لنفسية ابن شهيد النزّاعة لإثبات الذات حتى على لسان الآخرين، هذا الاعتراف من عتيبة قبل إنشاد ابن شهيد فيه دلالة على عظمته، ويأتي الاعتراف متمماً لأحداث القصة، وملازماً لنفسية صاحبها.

٢٠-وينهي عتيبة الإنشاد، ويطلب من ابن شهيد أن ينشده فقال لي: أنشد، ولا يأتي الإنشاد إلاّ بعد تبيان حالة ابن شهد عن طريق الإطناب بالاعتراض الذي أراد منه التحسين لتشويق النفس كي تتابع الأحداث ، والحالة التي انتابت ابن شهيد عندما طلب منه الإنشاد فهمت بالحيصة تشير إلى خوفه واضطرابه من جلال

الموقف، ويتبع الخوف بالمواجهة ثم اشتدت قوى نفسي هذا الإتيان بين الجملة ونقيضها، يجعل القارئ يتخيّل إنساناً اضطرب لسماع خبر ما، وبعد ذلك الخوف أراد المواجهة، وفي المواجهة تأكيدٌ على قوة الإرادة التي تتغلب على الانفعالات إزاء الأشياء، وإبراز الحالة النفسية يشوّق القارئ ليتابع الحدث تلو الحدث عبر إحكام النّسيج بقيادة الحدث لاكتشاف جوانب الشخصية، وبتأصيل الشخصية للحدث من خلال لغة الحوار البعيدة عن الإبهام، والموجزة في التعبير لتفسح المجال للخيال لتصوّر الأحداث والشخصيات التي تطوّرها.

ز-جمالية الصورة الشعرية :

١-والأبيات التي أنشدها ابن شهيد تُصوّر ما آلت إليه حالته النفسية من ألمٍ وشجن على تلك الدّيار التي عبثت بها أيادي الطامعين والناقمين من الفتنة التي حلت بالأندلس، ويتجلى الصرّاع عن طريق الحوار مع الذات شجته مغانٍ)، وصيغة الماضي الملازمة للمفردة (شجته) ترتبط بالذكرى والذّكرى توحي بالألم الذي يعتصر الفؤاد، هذا الألم يوحي باللون الأحمر المعبّر عن الحالة النفسية التي انتابت ابن شهيد من الجرح الذي أدمى الديار التي وصلت إلى قمة الازدهار، وإذ برياح الفتن تهبّ عليها لتنال منها، والمغاني التي أشجت ابن شهيد هي ديار الأندلس، وبذلك يكون ابن شهيد قد عبّر عن حالته النفسية بشكل غير مباشر، لينقل انفعالاته إلى الآخرين،

٢-ويمضي ليستعيد أيام الازدهار التي وصلت إليها الأندلس، وهذا الحديث عن الازدهار ما هو إلا حالة تعوضية عمّا انتاب الأندلس من اضطرابات وفتن.

٣-والذّوق المترف الذي تمثل به ابن شهيد يتجلّى بمجيئه بالمفردة تزلّ التي تتفق وهي تلك القبة التي ازدهرت وسمت، كما أنها تشير إلى رونق البناء وجماله الهندسي، إذ إنّ الريح كالماء الذي ينساب منحدراً إلى الأسفل، وهنا تكمن براعة التصوير ودقته المتناهية، في رسم حالة الازدهار التي وصلت إليها الأندلس.

٤-ولكن ما حصل أشجى ابن شُهيد، وجعله يفصّل في حالته تكلفتها التي تعطي الصورة المتخيلة في الذهن عن ذلك الشخص الذي يواجه الصعوبات التي تعترض مسيرته في الحياة، هذه الصعوبات المتراكمة ما هي إلاّ همومٌ سودٌ توحي بحالة البؤس التي اعترت نفسيّة ابن شهيد لما آلت إليه حالة الأندلس التي صوّرها عن طريق الإطناب الذي يرسم مشهداً تتداخل صوره وقد أراد منه نقل الحالة الشعورية التي يحياها إلى الجميع، من خلال الاندماج مع الطبيعة والليل قد جاش بحره صورة سوداء مخيفة توحي بحالة القلق التي خيّمت عليه، وقد أراد إزالتها ولكن هيهات، لأن الاضطراب يمثل حالة واقعيّة على حين ظن الشاعر ذلك اضطراباً في الطبيعة، وهنا ٥-يعبّر ابن شهيد عن حالته بالصورة أمواجه تتكسّر، وما اضطراب الأمواج إلاّ اضطرابٌ في نفسية ابن شهيد من جهة، واضطرابٌ في الوسط الاجتماعي الأندلسي من جهة أخرى.

٦-هذا الاضطراب يجعل ابن شهيد في حيرة من أمره كيف يواجه ذلك الخطر؟ أجل! لا مواجهة للأخطار إلاّ بالسيف والرمح، وهما قوتان لا غنى عنهما في بناء الدولة والدفاع عنها . وعند هذين المشهدين يُنهي ابن شهيد إنشاده لينتقل إلى إبراز رأي عُتيبة في ذلك الإنشاد فلما انتهيتُ تأمّلني عتيبة هذا يعني إصغاء عتيبة

لذلك الإنشاد، والمفردة تأمّلني توحي بتراخي الزّمن لأنّ فيها توقف النظر على ابن شهيد، وتفحّص تلك الشخصية، هذا الإنعام فيه إعجابٌ من عُتيبة، لذلك يأتي الحكم تتويجاً لذلك التأمل والإعجاب اذهب فقد أجزتك، وهنا يفكّ السّحر، وتنتهي القصة بتوضيح الهدف

٧-وتنتهي القصة بتوضيح الهدف الذي من أجله نسج ابن شهيد قصته، وهو إثباته لذاته عن طريق نيل الإجازة من تابع امرئ القيس، هذه الإجازة تبرهن على إعجاب ابن شهيد بنفسه وتأتي لتأكيد صلة أدب المشرق بالمغرب، وتطلّع ابن شهيد إلى رئاسة الأدبين، فالهدف عند ابن شهيد في كتابته قصة التوابع والزوابع دافع شخصي نابع من إحساسه بأن معاصريه من الأدباء والنقاد لم يولوه حقه من التكريم، ولم ينزلوه المنزلة الأدبية التي رأى نفسه أهلاً لها. كما أنّ غايته إثبات مقدرته الأسلوبية النثرية والشعرية أمام المشارقة عن طريق مقابلة توابع الشعراء والكتّاب، وكسب اعترافهم بتفوقه.

٨-ومما لا شكّ فيه أن ابن شهيد ثقافته العربية الواسعة بالشعر والنثر التي سخّرها لخدمة نسيج القصة، يجعلنا نجزم بأن هذه القصة عربية الشكل والمضمون لاستناد شكلها إلى الأسطورة العربية القديمة بوجود توابع للشعراء في وادي عبقر، واستقائها فكرة رحلة الإسراء والمعراج في نسج أحداثها، كما أنّها أتت عربيّة المضمون لما حوته من قص وشعر مرتبط بحضارة الأندلس من جهة، وبالتراث المشرقي من جهة أخرى.

٩-كما أن هناك من يرى أن قصة التوابع والزوابع من حيث فكرتها مقتبسة من المقامة الإبليسية لبديع الزمان رغم قصرها، فبطل المقامة فقد إبله وخرج في طلبها، فرمته مقاديره في وادٍ أخضر وهناك التقى بشيخ جالس وبعد أن أنس إليه أخذ يروي شيئاً من أشعار العرب وبهذا يتبين أن ابن شهيد أخذ المقامة ونماها وتوسع في خيالاتها وأضاف إليها ما جعلها تخدم غرضه الخاص في كتابة قصته الطويلة.

١٠-لم يتأثر ابن شهيد بالفكر اليوناني ، فالرحلة عربية الطابع والطبّع، وهي مستمدة من التاريخ العربي الإسلامي، لأنها تشبه رحلة الإسراء والمعراج في فكرة الرحلة، وأصالتها في المساجلات التي حصلت بين ابن شهيد وشعراء المشرق العربي ممّا يؤكّد انتماءها إلى التراث العربي الإسلامي، وينفي ما ذهب إليه بيريس، كما أن رسالة التوابع والزوابع بُنيت على أساس الأسطورة العربية القائلة بأنّ لكل شاعر تابعاً يلهمه الشعر، ويعينه في صناعته.

١٢-ظهرت التوابع والزوابع في الأندلس، وفي الوقت نفسه عرفت رسالة الغفران في المشرق، وقد اختلف في الكتابين أيهما أسبق إلى يد القارئ، وأي الكتابين تأثر بالآخر،

ح-موازنة بين رسالة الغفران والتوابع والزوابع :

١-الكتابان يسيران في طريق واحد،

٢- الاعتماد على الخيال،

٣- فرسالة الغفران كتبت للرد على ابن القارح، الذي كتب رسالة إلى أي العلاء المعري، اعتمد فيها على الخيال فرد عليه أبو العلاء برسالة طويلة هي رسالة الغفران، وقد اعتمدت رسالة الغفران على الدعوة من أبي العلاء بأن تغرس لابن القارح شجرة كبيرة في الجنة، ثم أخذ أبو العلاء يصف شجرة الجنة هذه وما حولها ومن سكن بقربها من الشعراء، وقد استرسل في سؤال الشعراء عن سبب المغفرة لهم فيسأل الأعشى عن سبب المغفرة فيقول الأعشى: القصيدة التي مدحت بها الرسول، فالرسالة مبنية على الغفران للشعراء وسببه،

٤- ورسالة التوابع والزوابع بنيت على الرحلة إلى أرض التوابع، أي توابع الشعراء والكتاب، ووسيلة ابن شهيد في تلك الرحلة جواد

تابعه زهير بن نمير، فقد ركبا ذلك الجواد وطار بهما إلى أرض التوابع وعندما وصلا إلى أرض التوابع أخذ ابن شهيد يعرض أنماطا من كتابته على توابع الكتاب والشعراء، ومما عرضه عليهم أنماط من كتابته التي حواها كتابه التوابع والزوابع.

٥-والتقت الرسالة والمقامة على إظهار قصة طواف يتنقل فيه الأديب من مدينة إلى مدينة ومن حوزة أمير إلى حوزة آخر. ومن مجموع ما وصلنا عن طبيعة المقامة الأندلسية يتبين لنا فقدت من بعضها قصة الكدية والحيلة المقترنة بها في المقامة المشرقية وأصبحت صورة رسالة يقدمها شخص بين يدي أمر يرجوه أو أمل يحب تحقيقه، كما أن كثيراً منها أصبح وصفاً للرحلة والتنقل.

.

الفهرس